مفاجآت الفلسفة

الفلسفة كظاهرة إنسانية متقلبة، تُولد دائمًا من رحم
الاعتراض.. ثم تقع في الاعتراض على نفسها !

وليد صادق

تمهيدي ماجستير شريعة إسلامية



مفاجآت الفلسفة

الطبعة الأولى
٢٠٢٦

إهداء

إلى ضحايا الفلسفة.. تلك الْبَغِيّ، المتمردة

التي تحتال على الضحية.. حتى يتوهم أنه أخضعها

فإذا بها تتبخر من بين يديه.. كأنها لم تكن !

لِيَعِشْ بعدها في عالم مواز (من البخار)

أغضبت الجميع..

حتى كرهها المؤمنون

وتمنَّى الملاحدة موتها !

ولدت من رحم الاعتراض على الوثنية اليونانية

فما لبثت أن اعترضت على نفسها..!

فتاهت.. وأتاهت

تقديم

الفلسفة كانت حركة احتجاجية.. نشأت كصرخة عقل أمام تعدد آلهة اليونان، ثم وقعت – هي نفسها – في تعدد "الأصول الأولى"..!

فما لبثت إلا واختلف طاليس وغيره من الطبيعيين حول أصل العالم..! فانتقلت من تعدد الآلهة إلى تعدد العناصر!

وهذه كانت البذرة الأولى لتيه العقل.. حين ينفصل عن الوحي..

وما لبث فيثاغورس والصوفيون أن اختلفوا كذلك !

وحتى في العصر الكلاسيكي اختلف أرسطو مع استاذه (أفلاطون)..!

واستمرت مفاجآت الفلسفة حتى وجدنا ديكارت وهيوم يقررون أفكارا رددها ابن تيمية والغزالي قبلهم بأكثر من ٤٠٠ عام !

وهكذا تاريخ الفلسفة ينتقل دوما من اعتراض إلى آخر.. ومن مفاجأة إلى أخرى.. وهذا يفتح لنا بابًا لنقد فلسفي ساخر.. من خلال نظرة شاملة لرحلة الفلسفة عبر أكثر من ٢٥٠٠ عام، من التساؤل عن أصل الكون إلى تفكيك بنية اللغة والسلطة.. مقسمة إلى مراحل تاريخية كبرى، مع أهم الاتجاهات والفلاسفة في كل مرحلة.

ولا تنزعج من كلمة ساخر؛ لأني أقولها بصدق: الفلاسفة هم أكثر من يستحق السخرية؛ لأنهم يُلبسون جهلهم ثوب الحكمة ويبيعونه للناس على أنه "تأمل عميق".

وليد صادق

في البدء كان الدين..

الفلسفة الشرقية القديمة (قبل ٦٠٠ ق.م) المرحلة التي تتداخل فيها الميثولوجيا، والعقيدة، والفلسفة.

الفهم الصحيح للفلسفة يبدأ من "الميثولوجيا"
باعتبارها "أرثوذكسية الفلسفة"

الأسطورة والفلسفة والدين تعايشت، وتأثرت إحداها بالأخرى، بل اجتمعت أحيانًا في فكر الفيلسوف نفسه.

فأفلاطون، مثلًا، ينتقد بعض الروايات الأسطورية عن الآلهة، لكنه يستخدم الأساطير والقصص الرمزية في عرض أفكاره الفلسفية، لقد انتقد تصوير الشعراء للآلهة على أنها تكذب وتخون وتتصارع على نحو يفسد أخلاق الناشئة، كما يظهر في الكتاب الثاني والثالث من الجمهورية.

لكنه لم يرفض كل الأساطير؛ فقد استخدم قصصًا رمزية في عرض مسائل فلسفية، مثل أسطورة الكهف..

ولم يكن هيراقليطس ملحدًا بالمعنى المعاصر؛ فقد استخدم لغة دينية ورمزية، وتحدث عن اللوغوس، أي المبدأ أو الخطاب العقلي الناظم الذي يحاول تفسير وحدة النظام الكوني.

بل طاليس نفسه لم يتخلص من الميثولوجيا.. حيث تنسب إليه أقوالًا عن الآلهة أو عن امتلاء الأشياء بالقوى الإلهية.. فلا يمكن وصفه بأنه كان ملحدًا أو عقلانيًّا خالصًا انفصل عن كل تصور ديني.

وهنا تظهر نقطة تستحق الانتباه: قد يرفض الفيلسوف بعض القصص الدينية الموروثة، دون أن يرفض الإلهي أو المقدس أو فكرة النظام الكوني.

لقد تمثلت الميثولوجيا اليونانية في تقاليد وقصص ارتبطت بأسماء مثل هوميروس وهسيود، وتناولت: زيوس وسائر آلهة الأولمب.. نشأة الكون

والآلهة.. صراعات الآلهة وعلاقاتها بالبشر.. القدر والموت والبطولة والجزاء. الفلسفة اليونانية لم تبدأ بإعلان موت هذه الميثولوجيا، بل بظهور طريقة جديدة في السؤال عن العالم.

ما علاقة الديانات الشرقية بالميثولوجيا والفلسفة اليونانية؟ هنا ينبغي أن نميز بين ثلاثة أمور كثيرًا ما تختلط: التشابه في الأفكار.. التأثير التاريخي المباشر.. التطور المستقل في الإجابة عن أسئلة متشابهة.

الهند: الفكر الديني الفلسفي: الهندوسية – مثلا – ليست مذهبًا واحدًا متجانسًا، بل تقاليد دينية وفلسفية متعددة، تمتد من الشعائر والقصص المرتبطة بالآلهة إلى مدارس ميتافيزيقية شديدة التجريد.. يمكن أن نميز فيها بين مستويين: المستوى الميثولوجي والديني: تتضمن النصوص والتقاليد الهندوسية قصصًا عن الآلهة ونشأة الكون ودوراته، وعن الخلق والحفظ والهدم، كما تظهر في تقاليد مرتبطة ببراهما وفيشنو وشيفا.

المستوى الفلسفي: في الأوبانيشاد، وفي مدارس مثل الفيدانتا، نجد أسئلة عن: حقيقة الذات.. أصل الوجود.. العلاقة بين الذات الفردية والمطلق.. التحرر من دورة الولادة والموت.. وفي بعض اتجاهات "الأدفايتا فيدانتا" تُطرح وحدة الحقيقة المطلقة، وتُفسَّر العلاقة بين الذات الفردية وبراهمان على نحو لا ثنائي، لكن هذه ليست عقيدة جميع الهندوس؛ فمدارس هندوسية أخرى تؤكد التمايز بين الله والعالم والنفوس.

والدرس هنا أن الفلسفة لم تكن حكرًا على اليونان؛ فقد أنتجت الهند تقاليد فلسفية عميقة، تداخل فيها الديني بالأسطوري والميتافيزيقي.

البوذية: تقدم مثالًا مهمًّا؛ لأنها لا تجعل الإيمان بإله خالق شرطًا مركزيًّا للخلاص.. بل تدور تعاليمها الأساسية حول المعاناة، وأسبابها، وإمكان إنهائها، والطريق المؤدي إلى ذلك.. كما تؤكد مفاهيم مثل اللاثبات، واللا ذات، والنشوء المعتمد... ومع ذلك، ليست البوذية خالية من الميثولوجيا؛ ففي تقاليدها تصورات عن عوالم متعددة وكائنات سماوية وتناسخات وأحداث ذات طابع كوني.. وهنا تتضح ثلاثة مستويات:

الميثولوجيا: تصورات قصصية عن العوالم والكائنات والأحداث الكونية.

الفلسفة: تحليل الذات والسببية والمعرفة وطبيعة الواقع.

الممارسة الدينية: الأخلاق والتأمل والسلوك الذي يقود إلى التحرر.

الصين.. الفلسفة الأخلاقية والسياسية: في الطاوية، يحتل مفهوم "الطاو" مكانة مركزية، ويشير إلى الطريق أو المبدأ الذي ينتظم به الوجود، وإن اختلف تفسيره بين النصوص والمدارس.

أما الكونفوشيوسية، فتركز بدرجة كبيرة على الأخلاق والنظام الاجتماعي والفضيلة والعلاقة بين الإنسان والنظام الكوني.. لكن لا ينبغي اختزال هذين التقليدين في فلسفتين مجردتين؛ فالتقاليد الصينية تضم أيضًا طقوسًا وأسلافًا وكائنات روحية وتصورات دينية متنوعة.

هل الميثولوجيا هي أرثوذكسية الفلسفة؟ إذا جعلنا الميثولوجيا أرثوذكسية الفلسفة اليونانية، ثم عممنا الحكم على الشرق، فقد نقع في خطأ تصور أن الفلسفة لا تظهر إلا بعد هدم الأسطورة.. والحقيقة أن تاريخ الهند والصين واليونان يبين أن الفكر الفلسفي يمكن أن ينشأ داخل تقاليد

دينية، وأن ينتقد بعضها، ويعيد تفسير بعضها الآخر، ويحتفظ بعناصر من الموروث في أثناء ذلك.

كما أن الديانات الشرقية، لا يصح وضعها كلها في خانة واحدة.

مصر وبابل: تراث ديني وأساطير عن نشأة الكون والآلهة.. معارف فلكية ورياضية وطبية وهندسية.. مؤسسات كهنوتية تحفظ المعارف والتقاليد.. وتصورات عن النظام الكوني والموت والبعث والجزاء.

مصر: الفكر الديني الأخلاقي المرتبط بالحكمة والخلود والنظام الكوني (ماعت).. فكرة الإله الواحد والبعث (والحساب) والميزان الأخلاقي..

هنا تكتمل الصورة على نحو أعمق؛ فمصر وبابل كانتا تمتلكان تقاليد دينية وعلمية وفكرية أقدم من الفلسفة اليونانية الكلاسيكية بقرون طويلة.. والسؤال المحوري هو: هل كانت الفلسفة اليونانية ثورة عقلية مستقلة، أم أنها أعادت صياغة ميراث شرقي أقدم، أم أن الأمر مزيج من الاثنين؟

الجواب يحتاج إلى التمييز بين انتقال المعارف، وانتقال الأفكار الدينية، وظهور المنهج الفلسفي.. ويمكن رسم المشهد التاريخي هكذا:

هل عرفت مصر فلسفة؟ ينبغي هنا الحذر من خطأ شائع: أن نحصر الفلسفة في اليونان، ثم نعامل كل تفكير مصري سابق لها على أنه مجرد أسطورة ! فقد عرفت مصر نصوصًا تأملية وأخلاقية مهمة، تبحث في الحكمة والسلوك والعدل.. وحوار الإنسان مع نفسه، الذي يناقش الموت والحياة والألم.. ونصوص لاهوتية تتناول طبيعة الخلق والنظام الكوني.

هذه النصوص تدل على وجود تفكير أخلاقي وتأملي ولاهوتي عميق.

فإذا كان المقصود بالفلسفة: التفكير المنظم في الوجود والمعرفة والأخلاق، أمكن الحديث عن جذور فلسفية في مصر القديمة.

كما ارتبطت مصر في المخيال اليوناني بالحكمة القديمة، والكهنوت، والمعرفة الدينية، وزارها أو اتصل بها بعض الفلاسفة اليونانيين في عصور مختلفة أشهرهم فيثاغورث (ويبدو أنه تعلم نظريته عن المثلث قائم الزاوية من كهنة المعابد المصرية).. وتظهر مصر في محاورات أفلاطون، ومنها طيماوس، بوصفها موطنًا لتقاليد معرفية قديمة..

بل "التقويم الشمسي" نفسه أخذه اليونان من كهنة مصر بالكامل، مع تعديل لـ "نظام الأيام الخمسة" الذي كان معمولا به في مصر.

بابل: تقدم بلاد الرافدين حالة شديدة الأهمية، لأننا نجد فيها تداخلًا وثيقًا بين الأسطورة والفلك والرياضيات وتقويم الزمن.. في نص "إينوما إيليش"، المعروف بملحمة الخلق البابلية، يتشكل النظام الكوني من صراع بين قوى إلهية، ويبرز مردوخ بوصفه الإله المنتصر الذي يرتبط بانتصاره تنظيم العالم.

هل كان البابليون مجرد أصحاب أساطير؟ قطعًا لا.. لقد طوّر البابليون معارف رياضية وفلكية متقدمة، وسجلوا الظواهر السماوية، وأنشؤوا تقاليد للتنبؤ الفلكي، ووضعوا طرائق حسابية مكّنتهم من التعامل مع دورات الكواكب والظواهر المتكررة.. وهنا ينبغي التمييز بين: علم الفلك البابلي وهو: رصد منتظم وحسابات وتسجيلات تراكمية، تطورت عبر القرون.. وبين التنجيم البابلي: وهو تفسير ديني أو سياسي لدلالات الظواهر السماوية وعلاقتها بالأحداث الأرضية.

وقد انتقلت بعض المعارف الفلكية والرياضية من بلاد الرافدين إلى العالم اليوناني، ولا سيما في الفترات التي ازداد فيها الاتصال بينهما، ومن أشهر الأمثلة تقسيم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة، الذي يرتبط بالتقاليد الرياضية والفلكية البابلية، ثم انتقل واستمر في الرياضيات والفلك اللاحقين.

كما استفاد الفلك اليوناني من معارف رصدية بابلية، وأصبحت السجلات البابلية مهمة في تطور علم الفلك الهلنستي.

لم يكن البابليون بحاجة إلى التخلص من ميثولوجيتهم كي يطوروا حسابات فلكية دقيقة.. وهذا وحده يكفي لإبطال التصور المبسط الذي يجعل الأسطورة مرادفًا للجهل، والفلسفة مرادفًا للعقل.

إذن: الميثولوجيا ليست أرثوذكسية الفلسفة اليونانية بالمعنى الدقيق، لكنها تمثل جزءًا مهمًّا من الخلفية الدينية والثقافية التي نشأت الفلسفة في مواجهتها وداخلها.. والديانات الشرقية تقدم نظائر لهذه العلاقة؛ إذ تتداخل فيها الميثولوجيا والعقيدة والفلسفة بدرجات وصور مختلفة.

وهذا يمنحنا معيارًا أدق للمقارنة، بدل أن نضع كل ما سبق الفلسفة في خانة الأسطورة، وكل ما جاء بعدها في خانة العقل.

فلاسفة البدايات..

الفلاسفة الطبيعيون الأوائل (ما قبل سقراط)..

تفسير المادة.. بالمادة !

الفلسفة اليونانية القديمة (٦٠٠ ق.م – ١٤٦ ق.م)

طاليس المالطي (٦٢٤–٥٤٦ ق.م): الفلسفة بدأت حين استيقظ رجل – يوناني – يُدعى "طاليس" وقال لنفسه: أعتقد أن أصل الكون هو الماء، نعم.. الماء !

ولأنه قالها بوجه متجهم وعبارة غامضة، صفق له الناس وقالوا: ها قد وُلد أول فيلسوف! مع أن أي صياد سمك كان يمكن أن يقول الشيء نفسه لو نسي قبعته في البحر!

لقد حاول تفسير تعدد الموجودات بمبدأ عام، ليكن..! ومع ذلك، فإن السؤال لا ينتهي: إذا كان الماء أصل الأشياء، فمن أين جاء الماء؟!

كان يريد أن يحرر التفكير.. من سلطة الأساطير، فوقع في أسطورة جديدة: أسطورة المادة! لقد استبدل طاليس الآلهة بالماء، لكنه لم يُجب عن السؤال الأكبر: ومن أين جاء الماء؟ هكذا ولدت الفلسفة من الرغبة في "التوحيد العقلي"، لكنها بدأت منذ لحظتها الأولى بتجزئة جديدة، إذ سيأتي بعده أنكسمندر فيقول: "الأصل هو اللانهائي (الأبيرون)"، ثم أنكسمينس: "الهواء"، ثم سيصرخ هيراقليطس: "النار!"

فكانت المفاجأة الأولى: أن الفلسفة التي احتجت على تعدد الآلهة.. صنعت تعدد الأصول الأولى!

أنكسيمندر (٦١٠–٥٤٦ ق.م) تلميذ طاليس: ثم جاء أنكسمندر، ورفض أن يكون الماء أو أي عنصر محدد آخر هو الأصل المباشر للأشياء. لقد نظر حوله وقال: لا، الماء ليس الأصل، الأصل هو الـ (أبيرون) !

ولمن لا يعرف الأبيرون فهو كلمة يونانية تعني "شيئًا ما.. لا ندري ما هو". بمعنى آخر: طاليس قال "الماء"، فأنكسمندر قال "خذ الغموض بدلًا منه".. وهكذا بدأت الفلسفة: من تحديدٍ واضح إلى ضبابٍ أنيق!

أنكسمينس (٥٨٥–٥٢٨ ق.م) تلميذ أنكسيمندر: رفض فكرة استاذه وقال إن الهواء هو أصل الأشياء، تتحوّل منه الأشياء بالتكاثف والتخلخل، حيث يتكثف بطريقة معينة فيصبح ماء ويتكثف بطريقة أخرى فيصبح ترابا..! بمعنى آخر: أنكسمانس، قال: "الأصل ليس الماء ولا الغموض، الأصل هو الهواء"؛ لأن الهواء لا يُرى، فهو "أعمق".

وهكذا اكتشفنا أول قاعدة للفلسفة: كلما قلّ وضوحك، زاد عمقك في نظر من لا يفهمك.. من وحدة الوجود إلى وحدة الحيرة..!

لقد أراد الفلاسفة الطبيعيون أن يفسروا الكون بالعقل، لكن العقل بلا وحيٍ يشبه بحارًا يبحر في ضبابٍ لا شواطئ له.

كل فيلسوفٍ أطفأ مصباح الآخر..! حتى انتهى القرن السادس قبل الميلاد وعقول اليونان تتساءل: إن لم نعرف أصل العالم بعد كل هذا، فهل نعتمد العقل أم نتهمه؟ وهنا كان لا بد من ظهور نوعٍ جديد من الفلاسفة: فلاسفة الروح والعدد، بقيادة فيثاغورس.. حيث تنتقل المفاجأة من المادة إلى المعنى، ومن التجربة إلى الرمز، ومن الطبيعة إلى ما وراء الطبيعة.

فيثاغورس الساموسي (٥٧٠–٤٩٥ ق.م) من الروح إلى العدد.. تتلمذ على كهنة المعابد المصرية بتوصية من فرعون (الحاكم اليوناني على مصر): بعد أن تعب العقل اليوناني من مطاردة العناصر، جاء

فيثاغورس بخطوة تبدو مدهشة: قال إن أصل العالم ليس مادةً، بل عددًا! فيثاغورس، الذي قرر أن الوجود كله أرقام، وأن من لا يفهمه ببساطة "ليس متناغمًا مع الكون".. ومن هنا وُلدت أسطورة "الأذكياء الذين لا يفهمهم أحد"، وهي أطول أسطورة بعد الإغريق أنفسهم.. (حين حاول العقل أن يفسر الوجود بالرموز، فغرق في الغموض) !

العدد – عنده – مبدأ الكون وجوهر الأشياء؛ لذلك قال بأن أصل كل شيء هو الأعداد، فالأعداد حقيقة مؤكدة وغيرها مجرد ظنيات، فجعل الأعداد وسيلة لتفسير الأشياء ومنها الموسيقى حيث قام بحساب كل نغمة برقم، وأن الكون تناغم عددي ومنسجم رياضيًا.. لقد نظر إلى السماء، فوجد انتظامًا في حركاتها، ونظر إلى الموسيقى، فوجد أن النغمة هي نسبة رياضية منسجمة.. فقال في نشوة الكشف: الكون كله موسيقى، والأعداد هي نغماته الخفية!

بدا الأمر سحرًا للعقل.. فبعد أن فشل الفلاسفة في تفسير العالم بالماء أو الهواء أو النار، ها هو فيثاغور يجعل العدد رمزًا للجوهر، ويُدخل الفلسفة من باب جديد هو الرياضيات الروحية.. لكن فيثاغورس لم يكن مجرد عالم حساب، بل مؤسس طريقة صوفية فلسفية أقرب إلى الطقوس الدينية، فقد جمع أتباعه في "أخوية" يعيشون فيها حياة الزهد والتأمل والصمت، يؤمنون "بتناسخ الأرواح" ما دفعهم لتحريم أكل الحيوانات (نباتيون)..! واعتبار النفس سجينًا في الجسد، ولا يتحرر الإنسان إلا عندما يتناغم مع "نغمة الكون الكبرى"! فرغم فكرته (العددية) فقد وضع دينا لأتباعه!

كانت تلك أول محاولة في التاريخ لجعل الفلسفة ديانة بلا نبي، وديانة مبنية لا على الوحي، بل على العدد "المقدس"..!

لقد هربت الفلسفة من تعدد الآلهة، فعادت تصنع لذاتها "إلهًا رقميا"!

هيرقليطس الإفسوسي (٥٣٥–٤٧٥ ق.م): لم يدم سحر الأرقام طويلًا، فنجم الفوضى الحقيقي كان هيراقليطس، الذي خرج من أفسس ليقول في ثقة: كل شيء يتغير، لا أحد يسبح في النهر مرتين !

جميل، لكنه لم يخبرنا: هل يمكن أن نغرق فيه مرتين؟

الصيرورة والنار.. فالكون في حركة دائمة وصراع الأضداد.. الإنسان يتحول من جنين إلى رضيع ثم طفل ثم شاب ثم عجوز ثم إلى تراب بعد موته.. فلم تكن له حقيقة (واحدة) ثابتة، والحقيقة الوحيدة هي: التغير.. وأصل الوجود – عنده – هو النار (المتصفة بالتغير في ذاتها).. رمز للتغيّر المستمر.. والتي تتحول إلى ماء وبقية الأشياء... والعالم ليس عددًا ساكنًا، بل حركة لا تهدأ.. فرد عليه بارمنيدس قائلًا: التغيّر وهم، والوجود واحد لا يتبدّل ! وهكذا وُلد الجدل الأول في تاريخ الفلسفة بين الثبات والتغيّر.. فمن أراد الكون عددًا، ومن رآه نارًا، ومن أنكره أصلاً !

لقد تحوّلت الفلسفة من محاولة تفسير الكون إلى مسرحٍ دائمٍ للجدال، ومن علمٍ يبحث عن الحقيقة إلى حوارٍ لا ينتهي.

كزينوفان الكولوفوني (٥٧٠–٤٨٠ ق.م): انتقد اعتقاد اليونانيين بالبانثيون؛ وكان أول فيلسوف يوناني ينادي بالتوحيد، رأى أن الإله واحد لا يشبه البشر.

بارمنيدس الإيلي (٥١٥–٤٥٠ ق.م): على نقيض هيراقليطس جعل مبدأه الثبات والعقل.. قرر الرد عليه قائلاً: التغير وهم، الحركة لا وجود لها.. وقال بأن الوجود واحد ثابت لا يتغير.. فالحواس نسبية والتغير المشاهد هو خداع للحواس كما يحدث في السراب.

فصار أول فيلسوف في التاريخ يعيش في عالم لا يتحرك فيه شيء.. إلا شفاه التلاميذ وهم يتثاءبون.. في قصيدته الفلسفية، يعالج مسألة الوجود واللاوجود، ويطرح حجة تجعل القول بنشوء الوجود من اللاوجود أمرًا مستحيلًا (فإذا كان الشيء غير موجود أصلًا، فكيف يصبح موجودًا)؟

زينون الإيلي (٤٩٠–٤٣٠ ق.م) تلميذ بارمنيدس: شرح فكر استاذه من خلال مفارقات تُظهر تناقض فكرة الحركة، كمفارقة نصف المسافة التي جعل الرياضيات فيها تعارض الحواس، وبالتالي تجاهل الحواس (النسبية) وتبنى النتائج الرياضية.

لاحقا أثبت العلماء خطأه بنتيجة (رياضية) حيث إن نصف المسافة وإن كانت تتكون من أجزاء لا متناهية إلا أن مجموع هذه الأجزاء هو عدد متناه، وبالتالي فزمن قطع نصف المسافة هو عدد محدد ومتناه.

ميليسّس الساموسي (٤٧٠–٤٣٠ ق.م): وسّع فكرة بارمنيدس، فرأى أن الوجود لا نهائي وغير متغير.

أنكساغوراس الكلازوميني (٥٠٠–٤٢٨ ق.م): أدخل مفهوم العقل الكوني (نوس) كمحرّك منظم للكون المكون من عدد لا نهائي من المواد، وأن كل شيء يحتوي على جزء من كل شيء.

أمبيدوكليس الأكراغاسي (٤٩٥–٤٣٥ ق.م): قال إن المادة تتكوّن من أربعة عناصر (نار، هواء، ماء، تراب) وتتحرك بفعل الحب والبغض.. وكان يؤمن بتناسخ الأرواح لتأثره بفلسفة فيثاغورس، ومات منتحرا عندما ألقى بنفسه في فوهة بركان.

ليوقيبوس (٤٦٠–٤٢٠ ق.م): رغم أنه لا يوجد شيء معروف عن حياته.. لكن هو من وضع فكرة الذرات.. فقد افترض التعدد (الذرات) والحركة، والفراغ الذي تتحرك فيه الذرات كأساس للوجود.

ديمقريطس الأبديري (٤٦٠–٣٧٠ ق.م): ثم جاء ديموقريطس، وطور فكرة ليوقيبوس عن الذرّات.. فقال: كل شيء يتكون من ذرات..

وهذه فكرة تستحق الاحترام لو لم يفسدها بقوله: حتى الروح ذرات.. فصار أول من جرّد الإنسان من قداسته باسم العلم، قبل أن يعرف ما هو العلم أصلاً.. بمعنى آخر: قال إن العالم لا يتكون من مادة لا نهائية ولا من عناصر أربعة، ورأى أن كل شيء يتكوّن من ذرات في فراغ.

السفسطائيون (حوالي ٤٩٠–٤٠٠ ق.م): مثّلوا الذروة الأخيرة قبل سقراط، الذي ردّ عليهم وفتح مرحلة جديدة في تاريخ الفلسفة (الاهتمام بالأخلاق والمنهج العقلي).

ركّزوا على اللغة، والإقناع، والنسبية الأخلاقية، والمهارة في الجدل، خصوصًا في الحياة السياسية في أثينا؛ لهذا السبب: بعض المؤرخين يجعلونهم مرحلة انتقالية بين الفلاسفة قبل سقراط وسقراط نفسه..

وآخرون يرونهم "خصوم سقراط" لا "أسلافه"؛ لأن سقراط ظهر في

مواجهتهم في الأساس.. (أو هكذا أراد لنا أفلاطون أن نفهم).
في النهاية هم سبقوا سقراط زمنيًا، وساهموا فعليًا في تحوّل الفلسفة من الميتافيزيقا إلى الأخلاق.

أشهرهم:-

بروتاغوراس الأبديري (٤٩٠-٤٢٠ ق.م): أشهر قول له: "الإنسان مقياس كل شيء"؛ دعا إلى النسبية الأخلاقية والمعرفية.

غورغياس اللينتيني (٤٨٥-٣٨٠ ق.م): رأى أن الوجود لا يمكن معرفته أو التعبير عنه بدقة؛ أسس للبلاغة الجدلية.

هيبياس الإليسي (٤٦٠-٤٠٠ ق.م): دافع عن التربية الموسوعية؛ رأى أن القوانين من وضع الناس لا من الطبيعة.

بروديكوس الكيوسي (٤٦٥-٣٩٥ ق.م): ميّز بين الألفاظ والمعاني الدقيقة؛ كتب عن الفضيلة والاختيار الأخلاقي.

أنتيفون (٤٨٠-٤١١ ق.م): من أوائل من قالوا إن القانون ضد الطبيعة وأن العدالة نسبية.

آخر فلاسفة البدايات:

أرخيلاوس (أركلاوس) (٤٧٠-٤٠٠ ق.م) تلميذ أنكساغوراس ومعلّم سقراط: كان من الأوائل في الفلسفة الأخلاقية.. ربط بين الطبيعة والأخلاق وقال إن الخير والشر من وضع البشر.. وهو حلقة وصل بين السفسطائيين وسقراط لذلك يُعد آخر الفلاسفة قبل سقراط.

هكذا انتهى العصر الأول من الفلاسفة.. كل واحد منهم أمسك جزءًا من الكون وصاح "وجدتها!".. فلم نجد نحن إلا ضوضاء أفكار لا أصل لها إلا حب الظهور.. لقد ظن هؤلاء أن الكون يمكن تفسيره بمادة أولى حسية (الماء، الهواء، اللانهائي، العدد..).. والخطأ هنا أنهم بحثوا عن "جوهر من جنس المادة" كلي وثابت، لكن المادة متغيرة بطبيعتها – فكيف تكون هي الثابت؟ إنهم كمن يحاول أن يقيس الصمت بالضجيج، أو يبحث عن الاستقرار في الزلازل.

العقل الذي بدأ يتساءل عن نفسه.. في خضم هذا الصراع بين النار والعدد والهواء، بدأ السؤال الحقيقي يظهر لأول مرة: أين أنا من هذا الكون؟ وما دوري فيه؟ وهذا السؤال سيحملنا إلى ولادة سقراط، الذي سيحوّل الفلسفة من دراسة الطبيعة إلى دراسة الإنسان، ومن سؤال: ممّ يتكوّن العالم؟ إلى سؤال: من أنا؟

وهنا سنصل إلى واحدة من أعظم محطات الدهشة في التاريخ الفكري.

العصر الكلاسيكي

الفلسفة الكلاسيكية العليا" – المرحلة السقراطية وأفلاطون وأرسطو (من "اعرف نفسك" إلى "اعرف التصنيف الصحيح للحمامة) حيث تتحول الفلسفة إلى مسرحية حوارية فيها أسئلة لا تُجاب أبدًا، وأجوبة لا يسأل عنها أحد.

الفلسفة الكلاسيكية: (سقراط، أفلاطون، أرسطو).. التحول: من الطبيعة إلى الإنسان والأخلاق والمجتمع.. أو كما يمكن تسميته: عصر الأسئلة التي لا تنتهي والإجابات التي لا تبدأ

سقراط (٤٦٩-٣٩٩ ق.م) "اعرف نفسك بنفسك".. هي غاية الحكمة: جاء سقراط ونقل الفلسفة من الطبيعة إلى الإنسان.. التوليد السقراطي: الحوار التهكّمي للوصول إلى الحقيقة عبر الأسئلة، التساؤل والبحث عن التعريفات الأخلاقية، حيث ركز على الأخلاق والفضيلة.

سقراط لم يترك لنا كتبًا، بل ترك لنا تلاميذًا يكتبون عنه، أي أنه أول فيلسوف يعتمد التسويق الشفهي بدل التأليف، وهو أول من جعل الجهل منهجًا.. كان شعاره: "أنا لا أعلم شيئًا".. ومع ذلك أمضى حياته يُعلّم الناس أنه لا يعلم شيئًا، حتى آمنوا أنه أعلم من يعلم أنه لا يعلم..!

رفض النسبية الأخلاقية للسوفسطائيين، وكان يتجول في أثينا يسأل كل من يلقاه: ما هي العدالة؟ ما هي الفضيلة؟ ما هو الجمال؟ ما هو الخير؟،، ثم لا ينتظر الإجابة، بل يسخر من السائل حتى يشك في نفسه !

إنه أول من جعل "الشك الذكي" موضة فكرية، وأول من حوّل الحوار إلى كمين فكري..! لقد نقل الفلسفة من السماء إلى السوق.. حين ضجّ الناس من جدالات الفلاسفة الطبيعيين حول النار والماء والهواء، خرج سقراط في شوارع أثينا حافي القدمين، ينادي: أيها الناس، ليس المهم ممّ يتكوّن العالم، بل كيف نعيش فيه ! لقد قلب الطاولة على الفلاسفة، ونقل الفلسفة من الكون إلى الإنسان، ومن الطبيعة إلى الأخلاق.. حتى صار

يخيف السياسيين والشعراء، إذ جعلهم يدركون جهلهم بما يظنون أنهم يعلمون.. لكن المفاجأة أن هذا الرجل الذي حرر العقل من الطبيعة، سيقوده عقله نفسه إلى الموت؛ لأن أثينا لم تحتمل "الأسئلة بلا أجوبة"، فقررت أن تسقيه السم..! لقد اتهمته المدينة بأنه "يفسد عقول الشباب" و"يحتقر آلهة الدولة"، فحكموا عليه بالإعدام، فشرب السمّ طوعًا!

المفارقة: الفيلسوف الذي علّم الناس التفكير.. مات بتهمة التفكير.

وهكذا مات سقراط.. وهو متيقن أنه لا يعرف لماذا مات.

أفلاطون (٤٢٧–٣٤٧ ق.م) تلميذ سقراط، أسس الأكاديمية الأثينية (أقدم مؤسسة فلسفية في الغرب).. صانع "عالم المثل" ومهندس الوهم الجميل: الذي حوّل الفكرة إلى عالم.. عالم المثل: الحقائق الحقيقية موجودة في عالم غير مادي من "المُثُل".. لقد رأى مشهد أستاذه يحتضر، فعاهد نفسه أن يبني للفكر عالمًا لا يُقتل فيه العقل أبدًا.. فابتكر نظريته المثالية: عالم المثل الثابتة الأبدية هو العالم الحقيقي، وعالمنا محض ظل له.. والنفس خالدة.. (الروح: خالدة، سبقت الجسد).. أي أن وراء هذا العالم الزائل عالمًا أعلى، فيه النماذج الكاملة لكل شيء، وما نراه هنا مجرد ظلالٍ لتلك الحقائق الخالدة.. بهذا جعل أفلاطون الفلسفة دينًا عقليًا جديدًا: فيه جنة المثل، ونور الحقيقة، وطريق الخلاص هو التأمل والمعرفة.. لكنه بهذا أيضًا أعاد الفلسفة إلى السماء، بعد أن أنزلها سقراط إلى الأرض.

أفلاطون تلميذ سقراط، قرر أن ينقذ فكر أستاذه من النسيان، فبنى له إمبراطورية من الأفكار الخيالية.. قال: العالم الذي نعيش فيه ليس حقيقيًا،

إنه مجرد ظل لعالم آخر مثالي.

بمعنى آخر: كل ما تراه وهم، وكل ما لا تراه هو الحقيقي..!

فإذا لم تفهمه، فهذا لأنك ما زلت في الكهف..! هكذا اخترع أفلاطون أول "ميتافيرس فلسفي"، قبل مارك زوكربيرغ بألفي عام..

وقال إن المعرفة هي تذكّر النفس للحقائق الأزلية التي عرفتها الروح قبل ميلادها في عالم المثل.

وكان يظن أن الفلاسفة وحدهم أهل الحق، والبقية مجرد "متفرجين في الظل"؛ ولذلك كان طبيعيًا أن يكتب "الجمهورية" المدينة الفاضلة التي يحكمها الفلاسفة (لأنهم يعرفون الخير الحقيقي)، أول نموذج لدولة يحكمها من يظن نفسه أعلم من الجميع – أي النسخة الفكرية من الاستبداد..!

دمج بين الأخلاق والسياسة والميتافيزيقا، وأرسى أسس الفلسفة المثالية.. الطريف أن أفلاطون بنى عالما مثاليًا من "المثل"، ثم تركنا نحن نعاني من واقعية الأسعار والإيجارات والفواتير.

فلم يقل لنا أبدًا كيف يدفع أحدهم فاتورة الكهرباء في عالم المثل!

أرسطو (٣٨٤–٣٢٢ ق.م) مؤسس المنطق الصوري "الأورغانون" تلميذ أفلاطون الذي خالفه (درس في الأكاديمية ٢٠ سنة) معلّم الإسكندر الأكبر.. أسس مدرسته الخاصة: اللِّيسِيوم: لقد جاء أرسطو، وقال: كفى خيالًا يا أستاذي أفلاطون، لنعود إلى الواقع، لكنه لم يعد إلى الواقع بل غرق فيه حتى الأذنين..!

رفض عالم المثل الأفلاطوني، وقال إن الجوهر في الأشياء ذاتها.. وركز على

عالمنا المحسوس (الواقعية): الجوهر هو ما يربط الصورة بالمادة (كل شيء مكوّن من مادة وصورة).. الميتافيزيقا: مفهوم السببية (المادي، الصوري، الفاعل، الغائي).. هدف الإنسان هو السعادة عبر تحقيق كمال طبيعته.. والفضيلة وسطٌ بين طرفين (الاعتدال).

اعتمد المنهج التجريبي والمنطقي، وأسّس الفلسفة المنطقية والعلمية.

لقد قرر الفيلسوف أن يصنع موسوعة لكل شيء: كتب في المنطق، والأخلاق: فضيلة الوسط (أخلاق نيقوماخوس)، والسياسة، والطبيعة، والميتافيزيقا، والشعر، والحيوان، والنبات، وحتى.. النوم!

كان يظن أن كل شيء يمكن تصنيفه بالعقل – حتى الإله جعله "العقل المحض الذي يفكر في نفسه".. وبهذا اخترع أول إله لا يعرف إلا نفسه.

ورغم عبقريته التنظيمية، إلا أنه ترك البشرية أسيرة لفكر "القياس"، أي أن الحقيقة تُستنبط من مقارنات لا تنتهي.

فلو عاش اليوم لكان من الذين يثبتون وجود الله بالتحليل الإحصائي!

النتيجة كانت انتقالا من العقل إلى المتاهة.. ففي هذا العصر الكلاسيكي، بلغت الفلسفة ذروتها ثم بدأت تنقلب على نفسها: سقراط يبحث عن الفضيلة.. أفلاطون عن المثال.. أرسطو عن البرهان.. لكن كلٌّ منهم أقام صرحًا يهدم صرح الآخر..! سقراط جعل العقل ميزان الأخلاق، أفلاطون جعله سلّمًا نحو عالم المثل، وأرسطو جعله أداة لتصنيف الوجود إلى فئات وفصائل.. النتيجة؟ ثلاثة عقول بنَت قصورًا منطقية في الهواء، ثم تشاجرت على من يملك السقف.

هؤلاء الثلاثة ظنّوا أن العقل قادر على الوصول إلى الحقيقة المطلقة، وأنه يمكن تنظيم الكون مثل جدول هندسي مرتب على اللوح.

سقراط فيلسوف جعل "اعرف نفسك" شعارًا أبديا، ثم لم يترك دليل الاستخدام، قال: "اعرف نفسك"، لكن لم يشرح لنا بأي وسيلة نعرفها، فصارت الجملة شعارًا يصلح للملصقات التحفيزية أكثر مما يصلح منهجًا معرفيًا.. ثم مات دفاعًا عن فكرة لم يُعرّفها بدقة.. أي أن أول ضحية للغموض الفلسفي كان الفيلسوف نفسه.

أفلاطون ابتكر "عالم المثل" – عالم خيالي لا يُرى ولا يُلمس، ومع ذلك يريدنا أن نؤمن بأنه الحقيقي، وأن العالم الحسي مجرد ظل له.. رجل حوّل العالم الحقيقي إلى "كهف مظلم"، ثم طالبنا أن نخرج لنرى ما لا يُرى!

باختصار: أفلاطون اخترع نسخة "ميتافيزيقية" من ذا ماتريكس قبل ألفي عام.. لكن الفرق أن "الظل" عنده أصدق من الأصل، فصارت الحقيقة أغرب من الوهم.

أرسطو أراد أن ينقذ العالم من هذا الغموض، فبدأ بتصنيفه في قوائم: حيوان، نبات، جماد، إنسان، جوهر، عرض، كمية، كيف... إنه أول من حوّل التفكير إلى ورق عمل منظم.. فصار التفكير عنده نوعًا من المحاسبة الكونية.. حتى أصبحت الفلسفة تشبه كتاب أحياء كبير بلا صور، وكل سؤال كوني يبدأ عنده بكلمة: هل هذا من الفصيلة الصحيحة؟

باختصار: هؤلاء الثلاثة نقلوا الفلسفة من الطبيعة إلى العقل، لكنهم جعلوا العقل نفسه طبيعة جديدة يجب تفسيرها.. وهكذا بدأ دوران لا ينتهي.

لقد أرادوا بناء عقلٍ موحّدٍ، فصنعوا بدلًا منه عقولًا متنازعة تتجادل حتى اليوم.. وهكذا انتهت المرحلة إلى قانونٍ غريب في تاريخ الفلسفة: كل فيلسوفٍ يولد من رحم احتجاجه على فيلسوفٍ قبله! سقراط جعل الشك فضيلة.. أفلاطون جعل الوهم نظامًا.. أرسطو جعل المنطق صنمًا..

ومن هنا بدأ الإنسان يظن أنه قادر على فهم الوجود بعقله وحده، فأنجب ذلك لاحقًا كل أمراض الفلسفة: العقلانية، والعلمانية، والعدمية، وما بعد الحداثة..

لكنه – قبلها – انتقل مباشرة إلى "التخدير العقلي" في العصر الهلسينتي.

الفلسفة الهلنستية

من الرواقيين إلى الأبيقوريين، حيث تحوّلت الفلسفة من البحث عن الحقيقة إلى البحث عن الراحة، ومن "ما أصل الوجود؟" إلى "كيف أتحمّل الوجود؟".. حيث تتحول الفلسفة إلى علاج نفسي لمن فشل في فهم الحياة؟
أو قل: لمن أنهكهم التفكير دون أن يجدوا الحقيقة.

الفلسفة الهلنستية (بعد أرسطو – حتى الرومان): المحور: كيف يعيش الإنسان حياة هادئة وسعيدة في عالم مضطرب؟ (حين صارت الفلسفة حبوب مهدئة بدل أن تكون بحثًا عن الحقيقة)

بعد أفلاطون وأرسطو، شعر الفلاسفة أن الحقيقة بعيدة، والواقع قاسٍ، فقرّروا أن الحل ليس في تغيير العالم، بل في تغيير ردّة فعلك تجاهه..! فنشأت ثلاث مدارس تمثل "عيادات نفسية" أكثر من كونها مذاهب فكرية: الرواقية، الأبيقورية، والشكّية.

الرواقية: زينون الكيتيومي (٣٣٤–٢٦٢ ق.م) الحياة وفقًا للمنطق والطبيعة (العقل والفضيلة).. التركيز على ما يمكن التحكم فيه (الداخلي) وتقبل ما لا يمكن التحكم فيه (الخارجي):

بعد أن ملَّ الناس من الميتافيزيقا الأفلاطونية والمنطق الأرسطي، جاء زينون الرواقي ليقول: الحكمة هي أن تتقبل كل شيء كما هو.

بمعنى آخر: إن فقدت مالك.. فلا تحزن، إن مات ابنك.. لا تتأثر، إن سقطت روما.. فابتسم.

إذن يمكن وصفهم بـ: فلاسفة "لا تشعر بشيء، تكن سعيدًا"..!

لقد جعلوا من اللامبالاة أعلى درجات الحكمة.

وإذا كنت تتساءل: ما الفرق – إذن – بين الحكيم الرواقي ورجل ماتت أعصابه؟ فالجواب: لا شيء تقريبًا إلا في اللباس.

الرواقي لا يرى أن العالم يحتاج إصلاحًا، بل أن عليك فقط "ضبط مشاعرك" – وهي فلسفة رائعة جدًا لو كنت تمثالًا من الرخام.

لقد قالوا إن الإنسان لا يملك العالم، لكنه يملك نفسه، فليكن ثابتًا أمام الألم، باردًا أمام الخسارة، وهادئًا أمام المصيبة ! ولكن كيف يكون الإنسان حجرًا دون أن يفقد إنسانيته؟ كيف يدفن مشاعره ثم يزعم أنه "حكيم"؟ هكذا.. تحولت الفلسفة إلى ما يمكن وصفه اليوم بـ"دورة تدريبية في التفكير الإيجابي".. فالرواقية تحوّل الكائن البشري إلى تمثال رخامي لا يتأثر بشيء، ثم تطلب منه أن "يعيش بانسجام مع الطبيعة" – مع أن الطبيعة نفسها تتأثر بكل شيء !

الأبيقورية: الأبيقوريون: فلاسفة المتعة الراقية.. إبيقور (٣٤١–٢٧٠ ق.م): أصغر من أرسطو بقليل، لكنه تأثّر به: في الجهة المقابلة، جاء أبيقور بفكرة جديدة: " غاية الحياة هي اللذة: الخير هو اللذة"..!

لكن لئلا يُتهم بالفسق، أضاف: "اللذة العقلية، لا الجسدية".. وبهذا استطاع أن يُرضي المتدينين والمترفين في آن واحد.

قال: "اللذة لا تأتي من الإسراف، بل من القناعة".. اللذة العقلية وراحة النفس.. ولكنها ليست المتعة الجسدية بل غياب الألم والقلق (الطمأنينة).. فليعش الإنسان بعيدًا عن السياسة، عن القلق، عن الدين، عن كل شيء مزعج..! أبيقور أراد السكون، فأنجب الركود؛ فحين تجعل غايتك "تجنّب الألم"، فأنت لست باحثًا عن السعادة، بل هاربًا من الوجود..!

لقد وعدهم بالجنة.. لكن على الأرض، بشرط أن تعرف كيف تختار وجبتك الفلسفية بعناية ! إنه أول من جعل الراحة النفسية غاية الفكر.. أي أنه اختصر الفلسفة كلها في عبارة تصلح لحكمة على كيس شاي..!

بعد أن كانت الفلسفة سؤالًا عن الوجود صارت مجرد بحث عن الاسترخاء

الشكّية: (بيرون) – تعليق الحكم.. تعليق الحكم لبلوغ الطمأنينة؛ لأن المعرفة المطلقة مستحيلة.. ثم جاء بيرون الإيلي، فقرر أن يشك في كل شيء، حتى في شكه نفسه..! قال: لا يمكننا أن نعرف الحقيقة، فلنحيا بلا حكم..! وهكذا اخترع ما يمكن تسميته اليوم بـ"الحياد الوجودي".

بيرون عاش حياة سعيدة لأن لا شيء عنده يستحق القلق، لكنه أيضًا لم يكن متأكدًا إن كان سعيدًا فعلًا !

ومن بعده، انتشرت "الشكّية" كموضة فكرية: الناس يختلفون؟ إذن لا توجد حقيقة! الآراء تتناقض؟ إذن لا يوجد صواب! وهكذا أسسوا لميلاد عصر "النسبوية" relativism قبل ألفي عام من إنستغرام.

الشكّيون (بيرون ومدرسته).. الشكاكون: فلاسفة "كل شيء نسبي، حتى أنا لست متأكدًا من نفسي"..! قالوا: لا يمكننا الجزم بشيء، فكل رأي له ضد، وكل حقيقة يمكن نفيها، إذن فلنشك في كل شيء ونعيش في سلام.

وهكذا.. عليك بالشك إلى أن تبدأ بالشك في نفسك، فتستيقظ صباحًا لتسأل: هل أنا موجود فعلًا أم هذا مجرد سوء فهم؟

إذن: الرواقيون: لا تشعر بشيء.

الأبيقوريون: سأبحث عن السعادة، لكن رجاءً لا تزعجوني بأخبار العالم".

الشكّية: أول فلسفة تعالج الجهل.. بمزيد من الجهل!

باختصار، تحوّلت الفلسفة إلى علاج نفسي قبل أن توجد العيادات، ومع ذلك لم تَشْفِ أحدًا من القلق، بل جعلته منهجًا في التفكير.

الفلسفة الرومانية

افعل ما تشاء.. المهم أن تبقى الإمبراطورية قائمة !

الفلسفة الرومانية (القرن ١ ق.م – ٥ م)

نقلت الفكر اليوناني إلى اللاتينية

أبرز الفلاسفة: شيشرون (١٠٦–٤٣ ق.م) الأخلاق والسياسة، سينيكا (؟–٦٥م) ماركوس أوريليوس (١٢١–١٨٠م) رواقية عملية

حين دخل الرومان المشهد، وجدوا أن كل الفلسفة لا تفيدهم في الحروب ولا في الضرائب، لكنهم أحبوا الرواقيين، لأنهم يجعلون الجندي يقاتل دون خوف.. والمواطن يتحمل دون تذمر.

فأخذ ماركوس أوريليوس – الإمبراطور الفيلسوف – يكتب "تأملاته"، وفيها نصائح مثل: "إن أساء إليك أحد، تذكّر أنه إنسان ضعيف مثلك". جميل.. لكن بعد أن يقولها، يرسل جيشًا ليدمر مدينته..!

وهكذا انتهى العصر الهلنستي بتناقض لطيف: الناس يتحدثون عن العقل بينما يعبدون الهوى، ويتغنون بالفضيلة وهم يضعون لها عطراً من صنع أثينا وروما.

إذن: الفلسفة القديمة بدأت بالتأمل في الكون، ثم انتقلت إلى الإنسان والأخلاق، ثم مزجت بين الفكر والسلطة والسياسة.

من "طاليس" إلى "ماركوس أوريليوس"، تشكلت اللبنات الأولى لكل سؤال فلسفي لاحق.

الرومان قالوا: افعل ما تشاء، المهم أن تبقى الإمبراطورية قائمة.

وبهذا تحولت الفلسفة من بحث عن الحقيقة إلى أسلوب حياة أنيق لمن تعب من التفكير.

الفلسفة الوسيطة (فلسفة في العصور الوسطى) حين لبست الفلسفة الصليب وصارت تتحدث باللاتينية بدل اليونانية..!

دخلت الكنيسة المسرح الفلسفي، وصار الفلاسفة يكتبون بالحذر الذي يكتب به السحرة قبل محاكم التفتيش.. حيث يلتقي الفكر الفلسفي باللاهوت الكنسي، وينتج مخلوقًا هجينًا نصفه عقل ونصفه خوف.

الفلسفة الوسيطة (القرن ٥م – القرن ١٥م) حيث نشهد تحولًا كبيرًا مع صعود الديانات الإبراهيمية وتأثيرها الهائل على الفكر الفلسفي.

الفلسفة النصرانية في أوروبا الغربية: التوفيق بين العقل (الفلسفة اليونانية) والإيمان (النصرانية).. دخلت الكنيسة المسرح، وصار الفلاسفة يكتبون بالحذر الذي يكتب به السحرة قبل محاكم التفتيش.

بعد أفول روما – حين صار التفكير تهمة.. بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، عمّ الظلام أوروبا قرونًا.. لم يعد أحد يسأل "ما هو الوجود؟" بل صار السؤال الأخطر هو: هل يجوز أن نسأل أصلًا؟

الكنيسة أمسكت بزمام الفكر، فصارت كل إجابة تبدأ بـ: "قال القديس أوغسطين"..! وكل من لا يقول "آمين" بعدها، يجد نفسه في محاكم التفتيش يتأمل النار عن قرب.

فالهدف لم يعد "معرفة الحقيقة"، بل "إثبات ما قررته العقيدة"..! صار السؤال: كيف نبرهن على أن ما نؤمن به صحيح؟ بدلًا من: هل ما نؤمن به صحيح؟ وهكذا دخلت الفلسفة قاعة المحكمة، العقل متهم، والإيمان هو القاضي، والكنيسة تمسك بالمطرقة !

القديس أوغسطينوس (٣٥٤–٤٣٠م) الإيمان أولاً ثم الفهم "آمن لكي تفهم" أي أن الفهم نتيجة الإيمان، وليس العكس.: الجسر بين العالمين الكلاسيكي والنصراني.. جمع بين الإيمان والعقل الأفلاطوني.. الفلسفة خادمة للإيمان.. نظرية النور الإلهي: المعرفة تأتي من استنارة الله للعقل، الله هو الحقيقة المطلقة والنور الذي ينير العقل.

أوغسطينوس اخترع فكرة "الخطيئة الأصلية"، وقال إن الإنسان فاسد منذ الولادة..! فصار العقل نفسه مشبوهًا، ومن هنا بدأ عصر الذنب العقلي.

لقد كان عبقريًا في اختراع التناقضات: جعل الإنسان يولد مذنبًا بخطيئة لم يرتكبها، ثم يطلب منه أن يعيش في تقوى ليغفر له ما لم يفعل..!

إنه الفيلسوف الذي تصالح مع ذنوبه بالفكر.. كان عبقريًا شابًا أحب الفلسفة، ثم اكتشف أنها لا تمنحه الغفران، فتاب، وانقلب على نفسه، وقال: "آمنت لكي أفهم"..! وكانت هذه العبارة كافية لإثبات مدى صعوبة الجمع بين النصرانية والفلسفة.

لقد بدأ من الإيمان لا من العقل، فصار أول من جعل العقل تابعًا للمجمع الكنسي.. ومن يومها صارت الفلسفة في أوروبا تمشي بخطى لاهوتية، كلما خطت نحو الحقيقة، سُحبت إلى المذبح بحجة الطاعة..!

المدرسية (السكولاستيكية) (القرن ٩–١٥م).. هدفها: التوفيق بين الفلسفة (العقل) واللاهوت (الإيمان).

البدايات: أنسلم الكانتربري (١٠٣٣–١١٠٩م): منطق الإيمان المسبق.. البرهان الأنطولوجي على وجود الله (الله هو الكائن الذي لا يمكن تصوّر ما هو أعظم منه).. جاء أنسلم في القرن الحادي عشر، وقال بكل ثقة: الإيمان سابق على الفهم، والعقل خادم له..! لكنه لم يكتفِ بذلك، بل حاول "إثبات وجود الله بالعقل وحده"، فقال: بما أن الله هو أعظم ما يمكن تصوره، فهو موجود؛ لأن الوجود أعظم من العدم..!!

بمعني آخر: وجود الله في الذهن دليل على وجوده في الواقع !

أي أن الفكرة عن الشيء تساوي وجوده الفعلي.. حسنًا يا أنسلم، إذن فكرة "أبريق راسل" تجعله موجودًا في السماء..!! سنلاحظ التغير الجذري بعد اطلاعهم على طرق الاستدلال عند المسلمين، كما فعل الأكويني !

أنسلم بهذا "المنطق الهش" أسس أول حيلة منطقية لتبرير الغيب بالعقل، فكان أول من استخدم "اللوجيك" لإقناع الناس بأن عليهم ألا يستخدموه

النضوج: توما الأكويني (١٢٢٥-١٢٧٤م) محاولة التوفيق بين أرسطو والإنجيل.. ثم جاء توما الأكويني في القرن الثالث عشر، وقال: لنصالح أرسطو مع الكنيسة.. مؤلفه الرئيسي: "الخلاصة اللاهوتية"، وجمع فيها المنطق الأرسطي مع العقيدة النصرانية في مزيج لا يذوب، مثل محاولة خلط الماء بالنار: "العقل يُدرك الطبيعة، والإيمان يُدرك ما فوق الطبيعة"..! فجمّل الصورة قليلًا، لكن النتيجة واحدة: العقل موظف لدى الإيمان، يعمل بدوام كامل وبدون راتب نقدي، فقط "أجر سماوي".

كان تأثير "ابن رشد" عليه هائلا.. فرّق بين الحقيقة الإيمانية والعقلية.. إثبات وجود الله عبر العقل (البراهين الخمسة).. قال إن العقل يمكنه إثبات وجود الله بالعلة الأولى.

كان الأكويني مؤمنًا بالعقل، لكنه لا يثق فيه إلا إذا انتهى إلى نتيجة مسبقة: اللاهوت ثابت، وكل ما يخالف ذلك باطل.. وبهذا ابتكر نوعًا جديدًا من التفكير: التفكير الموجّه، أو ما نسميه اليوم بـ "التحليل مع النتيجة المسبقة في رأسك".

الكنيسة أحبته لأنه جعلها "عقلانية بلا خطر"، أي: تفكير يمدحها فقط.

الأفول: ويليام الأوكامي (١٢٨٨–١٣٨٤م) صاحب الشفرة: الاتجاه التجريبي والاسمي (بداية انحسار اللاهوت العقلي).. تمهيد لعصر النهضة.

الفلاسفة النصارى لم يكونوا أحرارًا بل "لاهوتيين بأقنعة فلسفية".. كانوا يضعون العقل على المائدة ليذبحوه كل مرة باسم الإيمان..

حتى الفلاسفة المسلمون الذين وصل أثرهم إلى أوروبا – كالفارابي وابن سينا – كانوا يُدرسون سرًا ويُتهمون بالزندقة علنًا..!

أما من تجرأ على القول إن "العقل يفهم شيئًا من الإلهيات"، فقد انتهى إما منفياً أو محترقًا أو متحولًا إلى قديس لاحقًا بعد وفاته !

إذن: أوغسطينوس: "آمن أولًا.. ثم نحاول تفسير ما فعلت".

أنسلم: جعل الإيمان شرط العقل.. فأصبح أول من جعل الخيال دليلًا ميتافيزيقيًا.. وجعل الخطيئة أساس الوجود..!

الأكويني: مدير الموارد البشرية في علاقة العقل والإيمان.. جعل العقل موظفًا عند الكنيسة.

الفلاسفة الآخرون: جعلوا الخوف وسيلة للتفكير الآمن.

في العصور الوسطى صار التفكير رياضة خاضعة للرقابة الكنسية، وكل من حاول التفكير خارج الحدود، تمت ترقيته إلى مرتبة "هرطوقي محترق".. وبهذا انتهت القرون الوسطى كما بدأت: الناس لا تعرف إن كانت تفكر، أم تُلقّن نفسها ما يجب أن تفكر فيه.

فخلف كل مفكر في تلك القرون كان هناك ظل كنسي يهمس: تذكّر أن جاليليو لم يولد بعد، لكن مكانه شاغر في السجن !

الفلسفة الإسلامية (القرن ٨–١٣م): مركز الإشعاع الفلسفي في بغداد وقرطبة.. حيث سيظهر لأول مرة في التاريخ نور الوحي في مواجهة العقل الذي تعب من الدوران، وسيحدث انقلابٌ جديد حين استيقظ العقل في ضوء الوحي.. اللحظة التي أشرقت فيها الفلسفة بعد طول تيهٍ في ظلمات الجدل – لحظة دخولها أرض الإسلام.. ترجمت كتب اليونان إلى العربية، ودخلت كلمات مثل "جوهر"، "عرض"، "ماهية"، "عقل فعّال" إلى لغة العلم في بغداد (مع ما سببته تلك الكلمات من كوارث عقدية وصراعات وطائفية) لكن المفاجأة أن المسلمين لم يتعاملوا مع الفلسفة كأتباع، بل ك ناقدين وممحصين.. لقد سألوا الفلاسفة سؤالًا لم يسأله أحد قبلهم: ما قيمة العقل إذا لم يهده الوحي؟

لقد فهم المسلمون أن الوحي لا يلغي العقل، بل يهبه "الحدّ الأعلى" الذي يقف عنده كي لا يتحول إلى عبث.. ومن هنا بدأ عصرٌ جديد: عصر الفلسفة الإسلامية، التي أرادت أن تجعل العقل عبدًا لله لا صنمًا للذات.

فلسفة المشرق.. الكندي (ت. ٨٧٣م) أول فيلسوف عربي، أدخل الفكر اليوناني للعالم الإسلامي، رأى توافق الوحي والعقل: كان يعقوب بن إسحاق الكندي أول من جمع بين الفلسفة والإيمان.. رأى أن الحقيقة لا تتناقض، فإن جاءت من الوحي أو من العقل فمصدرها واحد: الله.

قال عبارته الخالدة: نحن لا نستحي من استحسان الحق أينما وجدناه.. بهذا أسّس الكندي أول فلسفة إسلامية لا تعادي اليونان ولا تقدّسهم، بل تنقدهم بعين التوحيد، وتردّ كل معرفة إلى "العلة الأولى" الله سبحانه وتعالى

الفارابي (ت. ٩٥٠م) الفيلسوف (المعلم الثاني بعد أرسطو): تصور المدينة الفاضلة يحكمها الفيلسوف.

ووضع نظريته في الفيض: صدور الكائنات عن الواحد الأول (العقل الفعّال).. فكانت تمثل "مأزق يوناني"..!

ابن سينا (ت. ١٠٣٧م): حين حاول العقل أن يصعد إلى السماء.. جاء بعده ابن سينا، فجمع بين فلسفة أرسطو وميراث الإسلام، وقال إن الله هو "واجب الوجود"، وإن العالم صادرٌ عنه صدور النور من الشمس.

لكن هنا.. بدأت.. المفارقة الكبرى: فابن سينا لم يُثبت الخالق كما أثبته القرآن – الخالق المريد الفاعل المختار، بل أثبته كـ "ضرورة عقلية" لا كـ "إرادة خالقة"..!!

وهكذا عادت الفلسفة الإسلامية لتقع جزئيًا في "مأزقٍ يونانيٍّ" جديد..!

حتى جاء الرجل الذي سيقلب الطاولة: الإمام أبو حامد الغزالي.. لكن قبله سينعطف بنا الطريق إلى.. فلسفة الأندلس والمغرب:

ابن باجّة (ت. ١١٣٨م): السعادة في التأمل والعزلة العقلية.

ابن طفيل (ت. ١١٨٥م): رواية حي بن يقظان، المعرفة بالعقل الخالص

ابن رشد (ت. ١١٩٨م) الجسر بين العقل والوحي: جاء ابن رشد ليوازن الكفة من جديد.. قال: "الوحي والعقل لا يتعارضان، لأن كليهما من مصدرٍ واحد".. فبينما ظنّ بعض المتكلمين أن الغزالي أغلق الباب أمام الفلسفة، فتح ابن رشد نافذة وقال: إذا كانت الشمس تشرق من الوحي، فالعقل هو العدسة التي تُركّز الضوء..

(نظرية الحقيقة المزدوجة (موضع جدل) فالحقيقة الفلسفية والدينية لا تتعارض.. لكن طرق التعبير عنهما مختلفة..

قام بالدفاع عن الفلسفة وشرح أعمال أرسطو.. وهو من نقل فلسفته لأوروبا التي أخذت كتبه، وفهمتها جيدًا، بينما العالم الإسلامي نسيها حتى عاد يستوردها مترجمة من باريس !

أثّر في توما الأكويني لاحقًا.

وتأثر بالفلسفة الإسلامية فلاسفة يهود من أمثال: موسى بن ميمون (١١٣٨-١٢٠٤م): الذي قام بمهمة مشابهة في التراث اليهودي، محاولاً التوفيق بين الإيمان والعقل.

وبهذا يتضح كيف حافظت الفلسفة - في العصور الوسيطة - على جذوتها وتطورت تحت مظلة الأديان التوحيدية، ثم بدأت في التحول نحو الإنسان والعلم في عصر النهضة.. (الفلسفة الحديثة - من النهضة إلى القرن ١٩)..

ولكن قبلها ننعطف على.. ثورة (نقد الفلسفة).. التي أشعل شرارتها الغزالي، وفجرها ابن تيمية.

زبدة الكتاب: نقد الفلسفة – ثورة الغزالي وابن تيمية

حين استفاق العقل من غيبوبته.. في القرون الوسطى، كانت الفلسفة قد بلغت ذروتها مع أرسطو، ثم أعادها الفلاسفة المسلمون بلباسٍ جديد مع الفارابي وابن سينا، فأصبح العقل سلطانًا لا يُراجع، والمنطق ميزانًا لا يُكسر.. ومن هنا اندلعت الثورة..

الفكر الديني والنقدي للفلسفة: الغزالي (ت. ١١١١م) الذي هدم الفلسفة بأدواتها: ما إن جاء أبو حامد الغزالي حتى أطلق أول قنبلة فكرية هزّت أركان الفلسفة: من ظن أن العقل وحده يُدرك الغيب، فقد جعل من نفسه نبيًّا بلا وحي.. كتب الغزالي كتابه الخالد "تهافت الفلاسفة"، فكان أول نقدٍ شاملٍ للعقل الفلسفي من داخل العقل ذاته !

بيّن أن الفلاسفة، حين حاولوا الهروب مما وصفوه بالتناقضات الدينية، وقعوا في تناقضاتٍ أعظم منها ! فمنهم من أنكر البعث، ومنهم من قال بقدم العالم، ومنهم من جعل الله ﷻ علةً ميكانيكيةً لا إرادة لها..

وأعلن في هذا الكتاب أن الفلاسفة ضلوا في عشرين مسألة، وكفروا في ثلاثٍ منها – أهمها قولهم بقدم العالم، وإنكارهم علم الله بالجزئيات.. كانت المفاجأة أن الغزالي لم يحاربهم بالحديث والفقه فقط، بل بلُغتهم ومنهجهم العقلي ذاته، فأثبت أن العقل وحده إذا خلا من الوحي، ينتهي إلى التناقض واللايقين..

لقد ضرب الغزالي الفلسفة في مقتلٍ، لكن لم يقتلها، بل حرّرها من أوهامها.

في القرن السابع عشر، أعلن رينيه ديكارت ثورته على فلسفة القرون الوسطى، وقال كلمته الشهيرة: "أنا أشك، إذن أنا أفكر، إذن أنا موجود" فظنّ الناس أنه ابتكر المنهج الشكيّ من العدم، لكن الحقيقة المدهشة أن الغزالي سبق وقاله في المنقذ من الضلال قبل ذلك بأربعمائة سنة.. إنها العبارة نفسها، والمعنى نفسه، والغاية نفسها: إعادة بناء اليقين من نقطة الصفر.

شيخ الإسلام ابن تيمية (ت. ١٣٢٨م) جعل سقف الفلاسفة يخر عليهم من فوقهم: بعد قرنين، سيأتي ابن تيمية ليُفاجئ الجميع بموقفٍ أعجب من الغزالي.. فبينما اكتفى الغزالي بنقد الفلاسفة، نقد ابن تيمية أداة الفلاسفة نفسها – أي المنطق الأرسطي..!

وهنا نجد شيخ الإسلام، يُفاجئ التاريخ كله بتأسيس ما يشبه نقد الفلسفة الحديثة قبل ولادتها..! أوضح في كتابه "الرد على المنطقيين" أنه ليس في المنطق الأرسطي ما يزيد العقل إلا اضطرابًا، فإن العقل الفطري المستقيم أوضح برهانًا من صيغتهم المصفوفة..

لقد أعلن ثورةً فكريةً على أرسطو قبل ديكارت وبيكون بقرون..! وبيّن أن اليقين لا يُبنى على صورٍ ذهنيةٍ معزولةٍ عن الواقع، بل على المشاهدة والتجربة والتواتر الفطري..

وبذلك، سبق المنهج التجريبي الغربي بأربعة قرون، وسبق الشك المنهجي الديكارتي بخمسة قرون، وسبق نقد هيوم للسببية بأربعمائة عام، وسبق كانط في نقد العقل من حيث أراد إصلاحه لا إلغاؤه.

هيوم.. ابن تيمية في ثوبٍ اسكتلندي.. ديفيد هيوم، الذي هدم أساس السببية قائلاً: "نحن لا نرى سببية في العالم، بل مجرد تعاقب بين الأحداث" فظن الناس أنه اكتشف ذلك لأول مرة، لكن ابن تيمية قال في "الرد على المنطقيين" قبل هيوم بـ٤٠٠ عام: "وليس عند الحنفاء أن أحدا غير الله يستقل بفعل شيء بل غايته أن يكون سببا والأثر لا يحصل إلا به وبغيره من الأسباب وبصرف الموانع، **والله تعالى هو الذي يخلق بتأثير الأسباب وبدفع الموانع مع خلقه سبحانه أيضا لهذا السبب**، لكن المقصود أنه **ليس في الوجود ما يستقل بإحداث شيء ولا ثم شيء يوجب كل أثر إلا مشيئة الله وحده**، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن".

أي أن ابن تيمية سبق هيوم في نقض "السببية الميكانيكية"، مع الفرق الجوهري: أن هيوم انتهى إلى الشك، بينما ابن تيمية انتهى إلى توحيدٍ خالصٍ لله.

وأثبت شيخ الإسلام في "درء تعارض العقل والنقل" أن العقل الصريح لا يمكن أن يعارض النقل الصحيح.. وأن التصورات الذهنية لا تُنقذ من الجهل ما لم تُربط بالواقع.. وأن القضايا الكلية التي يعتمدها الفلاسفة ليست إلا تجريدات فارغة بلا دليل حسي..[1]

إذن: الغزالي وابن تيمية أعادا الفلسفة إلى حجمها الطبيعي، وجعلوها

---

[1] راجع كتاب: "حين وُضعت الأشعرية محل المعتزلة كمؤسسة رسمية بدأها المأمون (قسطنطين الإسلام)" صـ٦٤ وما بعدها.

خادمة للوحي، لا حاكمة عليه.

وهكذا، بينما كان الغرب ما يزال يقدّس أرسطو، كان الشرق الإسلامي يراجع أرسطو.. وينقّيه.. ويؤسّس لثورة فكرية جديدة دون أن يدري الغرب !

باختصار، الغرب حين بدأ "عصر النهضة" ظن أنه يكتشف أرضًا جديدة، لكنه كان يسير في دروبٍ عبدها له الغزالي وابن تيمية منذ قرون.

والفلسفة الوسيطة مزجت الإيمان بالعقل، وكانت الفلسفة الإسلامية جسرًا نقل التراث اليوناني إلى أوروبا، ومهّدت لعصر النهضة.

فيها ظهر جدل "العقل والإيمان" الذي سيستمر حتى الفلسفة الحديثة.

لقد دار العقل الغربي دورةً كاملة: من رفض الدين، إلى نقد العقل، إلى الاعتراف بالحدود.. والمفارقة أن: الفلسفة التي بدأت كاحتجاج على الدين، انتهت إلى أن يحييها الإسلام من جديد، لكن هذه المرة على ضوء الوحي الحق.

الفلسفة الحديثة (الإنسان مركز الكون) !

عصر النهضة.. وبدايات الفلسفة الحديثة

حين استيقظ العقل الغربي من نومه الطويل وقال للكنيسة: شكراً.. لكني سأفكر بنفسي الآن.

الفلسفة الحديثة (من "النهضة" القرن ١٥م إلى القرن ١٩م)

حين أظلمت أوروبا، أشرقت من الشرق

بينما كانت أوروبا غارقة في ظلمات الكنيسة والخرافة، كانت فلسفة الإسلام تُنضج العقل وتفتح له طريقًا نحو التوحيد والبرهان.. ومن خلال الأندلس ستنتقل شذرات من هذا النور إلى الغرب، ليبدأ عصر النهضة الذي سيُعيد إنتاج أفكار الغزالي وابن تيمية.. ولكن بلا قرآن !!

إذن، ها نحن ندخل أكثر الفصول درامية في تاريخ الفلسفة – الفصل الذي خرج فيه العقل من دير الكنيسة وهو يصرخ: لن أؤمن قبل أن أرى!

بعد قرونٍ من استبداد الكنيسة في أوروبا، حيث كانت تحاكم العلماء وتحرق كتبهم، ثار الناس لا على الله، بل على من ادّعوا تمثيله !

لكن المفارقة أن الثورة على رجال الدين تحولت إلى ثورة على الدين نفسه، وتحوّل الإيمان بالله إلى جريمة فكرية عند بعضهم.. ومن هنا بدأت أوروبا تعلن "عصر العقل".. فخرج ديكارت، ليقول عبارته الخالدة: أنا أفكر، إذن أنا موجود.. وكانت تلك صيحة ميلاد الإنسان الفيلسوف الجديد، الذي جعل "الأنا" محور كل وجود.

بدايات النهضة الأوروبية (القرن ١٥–١٦م).. عصر النهضة وبدايات الفلسفة الحديثة (حين ظن الإنسان أنه إله صغير بمجرد أنه فكّر قليلًا): من ظلمة الكنيسة إلى عبادة العقل، لكن.. لاحظ السياق العام: سقوط القسطنطينية (١٤٥٣م).. انتقال المخطوطات اليونانية إلى أوروبا.. ظهور الطباعة، الكشوف الجغرافية، الإصلاح الديني (مارتن لوثر).

مركزية الإنسان بدل الإلهيات (الاهتمام بالإنسان والعلم بدل اللاهوت) الانتقال من الإله إلى الإنسان ومن العصور الوسطى إلى العصر الحديث، وظهور ما يسمى بالفكر الإنساني (Humanism الإنسانية) والتركيز على كرامة الإنسان وإمكاناته، وإعادة اكتشاف النصوص الكلاسيكية.. الأدب، التاريخ، والفنون.

عصر النهضة – حين عادت "الآلهة القديمة" بثياب بشرية.. بعد قرون من الخنوع الكنسي: بدأت أوروبا تفتح النوافذ فدخل الهواء، ومعه الغبار أيضًا.. الناس اكتشفوا فجأة أن الإنسان جميل، وأن العقل ليس شيطانًا بل أداة معرفة.. لكن بدل أن يبحثوا عن الحقيقة، قرروا أن يبحثوا عن "الإنسان نفسه".

عادت التماثيل الإغريقية، والأسماء الوثنية، واللوحات التي تمجد "الجسد العاري" كأنه معبد جديد.. وصارت الفلسفة تمزج بين الفن والغرور، وبين "الفكر" و"الفلوس".

من رواده: توماس مور (اليوتوبيا).. وظهر مفكرون مثل "إيراسموس" الذي كان يقول: "العقل زينة الإنسان".. ونيكولو مكيافيللي الذي قال: "العقل وسيلة للسلطة".. "الغاية تبرر الوسيلة".. وفي كتاب "الأمير"، فصل السياسة عن الأخلاق.

وأعلن كوبرنيكوس نظرية مركزية الشمس للكون، مما هز مركزية الأرض والإنسان في الخليقة..!

وهكذا خرجت الفلسفة من الكنيسة لتدخل القصر الملكي..

الثورة العلمية والفكر التجريبي (القرن ١٦-١٧م).. فرنسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦م): مؤسس المنهج التجريبي.. دعا إلى الاعتماد على الملاحظة والتجربة بدل القياس الأرسطي.. شعاره: المعرفة قوة.

غاليلو - كبلر - نيوتن: أكّدوا على الطبيعة كمنظومة رياضية مضبوطة بالقوانين.

الفلسفة العقلانية (القرن ١٧م): مع النهضة، قرر الإنسان أن يضع العقل مكان الإله.. فالمعرفة لم تعد وحيًا، بل "استنتاجًا"، والوجود لم يعد غاية، بل "مسألة تحليل".. بدأت الفلسفة الجديدة بشعار يبدو مهيبًا: "لن نؤمن بشيء إلا إذا أثبته العقل".. لكن النتيجة: أصبح العقل يؤمن بنفسه.. حيث يبدأ العقل البشري في التمركز كقوة مطلقة، قبل أن يدخل في أزمة مع نفسه..! السؤال المحوري: ما الذي يمكنني معرفته بشكل يقيني؟ و: كيف نصل إلى الحقيقة؟ (نظرية المعرفة تأتي في المقدمة).

كان المبدأ: المصدر الأساسي للمعرفة هو العقل والاستدلال المنطقي..

بدأت مرحلة الانفجار الكبير للفكر من الإيمان بالمطلق إلى عبادة الذات.

المرحلة التي قال فيها الفلاسفة: كفى ظلامًا كنسيًا، لنُشعِل مصباح العقل! لكنهم، كالعادة، أشعلوه في اتجاه وجوههم، فأصابهم العمى المنهجي.

رينيه ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠م) أبو الفلسفة الحديثة (الشك الذي أنجب اليقين): ثم أطل علينا رينيه ديكارت، الرجل الذي أراد أن يبدأ من الصفر، فقال: "سأشك في كل شيء حتى أصل إلى شيء لا يمكن الشك فيه".. فشكّ في الحواس والعالم والجسد، ثم قال: لكن لا أستطيع الشك

في أنني أشك، ومن هنا فأنا أفكر، إذن أنا موجود..!
لكنه لم يفسر من الذي يشك قبل أن يوجد !
لقد وصل ديكارت إلى يقينٍ بالعقل الذاتي، كما وصل الغزالي قبله بأربعمئة عام في المنقذ من الضلال !! لكن الفرق الجوهري أن الغزالي خرج من الشك إلى الإيمان، أما ديكارت فخرج منه إلى الذات!
الكوجيتو: "أنا أفكر، إذن أنا موجود".. أول حقيقة يقينية عنده.. الثنائية: فصل تام بين العقل (الجوهر المفكر) والجسد (الجوهر الممتد)..
ومن هنا.. ديكارت وجد نفسه ! لكن غاب عنه أن وجوده لا يعني أن ما يفكر فيه صحيح..!
أراد تأسيس معرفة يقينية كالرياضيات، وجعل العقل هو المعيار المطلق، فألغى الوحي، والتجربة، والعرف، والتاريخ، وكل شيء إلا ذاته المفكرة.. بمعنى آخر، جعل الإنسان مركز الكون بدل الإله.
لقد حوّل الشك إلى يقين، واليقين إلى عبادة ذاتية.. ومنذ تلك اللحظة صار العقل الحديث يعبد نفسه في المرايا.. والطريف أن ديكارت.. الذي بدأ بالشك في كل شيء.. لم يشك أبدًا في أن "عقله" أداة صالحة للمعرفة..! فأصبح كمن يقول: أنا لا أصدق أحدًا.. إلا نفسي !
ديكارت بنى فلسفة كاملة على ضمير المتكلم، حتى صار الوجود كله "جملة نحوية"!

باروخ سبينوزا (١٦٣٢–١٦٧٧م): ثم جاء باروخ سبينوزا، ورفض ثنائية ديكارت.. وقال بوحدة الوجود: الله والطبيعة هما جوهر واحد (الإله–

الطبيعة).. فأصبح الإله – عنده – والطبيعة شيء واحد..! أي أن الإله ليس شخصًا يسمع ويفعل، بل هو النظام الكوني نفسه !

وبهذا حول الإله إلى قانون فيزيائي، ثم قال بثقة: "لقد خلصت الإله من الخرافة".. لكن ما فعله – في الحقيقة – أنه خلص الخرافة من الإله.

سبينوزا كان مطرودًا من معبده اليهودي، منبوذًا من الكنيسة، محبوبًا من الفلاسفة؛ لأنه قال ما يحلو لهم: افعل ما تشاء، الكون سيبقى كما هو.

الأخلاق على الطريقة الهندسية.. هو أول من صاغ مذهب "الربوبية المصفاة"، حيث يُمكنك أن تكون متدينًا دون صلاة، مؤمنًا دون وحي، ومتصوفًا دون أي التزام.

خلاصة مذهبه: سبّح بحمد الكواكب، فإنها الله في حالة دوران !

ليبنتز ولوك وهيوم: صراع العقول الصغيرة على الحقيقة الكبرى.. في القرن السابع عشر والثامن عشر، انقسم الفلاسفة إلى فريقين:

العقلانيون: يؤمنون أن الحقيقة في العقل (مثل ديكارت وسبينوزا وليبنتز).

التجريبيون: يرون أن المعرفة تأتي من التجربة (مثل لوك وهيوم).

غوتفريد فيلهيلم لايبنتز (١٦٤٦–١٧١٦م) نظرية "الموناداتMonads" (الجواهر البسيطة): العالم مكون من "الوحدات" (Monads) وهي جواهر روحية بسيطة..

ليبنتز حاول تبرير الشر بالعقل، فجعل الخير "حتميًا" والشر "جزءًا من الصورة الكلية الجميلة"..

بمعنى آخر: كل مأساة مجرد إعادة تنسيق فني.

وضع نظرية "أفضل العوالم الممكنة"..[1] وأن العقل يدرك الحقائق الضرورية.. قال: "نعيش في أفضل العوالم الممكنة".. ثم اندلعت الحروب والمجاعات والأوبئة، فردّت عليه الطبيعة: هل تتحدث عني أنا؟!

ورد عليه فولتير ساخرًا في كانديد: حقًا؟ قل ذلك لمن ماتوا في الزلازل..!

الفلسفة التجريبية (القرن ١٧-١٨م).. المصدر الوحيد للمعرفة هو التجربة الحسية.. (التجربة مصدر المعرفة): جون لوك وديفيد هيوم.. الاثنان قالا إن المعرفة تبدأ من التجربة، لا من العقل.

لكنهما.. نسيا.. أن التجربة نفسها تحتاج عقلًا لتُفهَم !

جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤م) العقل عند الولادة هو "ورقة (صفحة) بيضاء: كل المعارف تأتي من الإحساس والتجربة.. المعرفة تأتي من الانطباعات الحسية.. ميز بين صفات أولية (موضوعية كالحجم) وصفات ثانوية (ذاتية كاللون).

نقد لوك: لا وجود لصفات أولية منفصلة عن الإدراك.

ديفيد هيوم (١٧١١-١٧٧٦م) ذروة التجريبية (حين انهار جسر السببية): ثم جاء ديفيد هيوم، فأطلق قنبلة هزّت بناء الفلسفة كله: ليس لدينا دليل عقلي على أن السبب يؤدي إلى النتيجة..! جون لوك قال إن العقل صفحة بيضاء، فجاء ديفيد هيوم ومسح الصفحة كلها..! وقال: لا

---

[1] هذه النظرية على ما فيها من الطعن في قدرة الله عز وجل وكرمه، فقد سبقه لها المعتزلة، والغزالي في عبارته الشهيرة: ليس في الإمكان أبدع مما كان.

وجود لسببية، ولا يقين، كل ما نعرفه عادة تعودنا عليها.. لقد نسف السببية والعقل معًا، ثم جلس يتأمل في الرماد قائلاً: انظروا كم كان جميلًا قبل أن يحترق..! وهكذا.. لم يبقَ للإنسان إلا أن يشك في كل شيء، حتى في وجود نفسه أحيانًا ! لقد هدم هيوم العقل والعلم جميعا.

الشك الراديكالي: هيوم شك في (causality السببية) وقال إنها مجرد عادة ذهنية نربط فيها بين حدثين.. العقل لا يدرك إلا ترابط الأفكار، لا الضرورة.. قال: إننا لا نرى بين النار والاحتراق علاقة ضرورية، بل مجرد تتابعٍ في التجربة.. فالعقل لا يعرف "السبب"، بل يعتاد "التكرار".

وكانت المفاجأة أن هذا الفكرة رددها ابن تيمية قبله بقرون في نقض المنطق وصححها..! وهكذا، بعد أربعة قرون من الغزالي وابن تيمية، عاد الغرب يكتشف أفكارهما من جديد – ولكن دون أن يعرف مصدرها.

لكن الغزالي وابن تيمية وصلا إلى اليقين.. بعكس هيوم الذي وصل إلى الشك في وجود الذات أو العالم الخارجي بشكل يقيني..

هيوم: فيلسوف قال: "العقل لا يُثبت شيئًا" ثم كتب كتابًا لإثبات ذلك..!

جورج بيركلي (١٦٨٥–١٧٥٣م) الوجود هو الإدراك: أن يُدرَك (الظواهر فقط).. الأشياء لا توجد إلا بقدر ما ندركها.

إذن: النهضة أعادت الإنسان إلى مركز الكون: ديكارت جعل العقل معبودًا جديدًا.. سبينوزا أذاب الإله في الطبيعة.. هيوم هدم يقينهم جميعًا بابتسامة باردة، ومن هنا انطلقت أوروبا إلى عصر التنوير، الذي حمل شعار: "حرروا العقل من كل قيد!" حتى لو انتهى به الأمر عبدًا لشهواته.

فلسفة التنوير (القرن ١٨م) الفلسفة الحديثة العليا (حيث يتحدث الفلاسفة عن "العقل الخالص" و"الروح المطلقة" بينما تنهار البشرية تحت أقدامهم..!): من كانط وهيغل إلى نيتشه (حين قرر العقل أن يكون نبيًّا بلا وحي)، حيث تبلغ الفلسفة ذروة غرورها، عصر العقل المتأله الذي أراد أن يفسر كل شيء، حتى الإله نفسه بالمنطق!

استخدام العقل كنقد للمجتمع والسياسة والدين.. العقل أساس التقدم، والحرية غاية الوجود الإنساني..

روادها: فولتير، روسو، ديدرو، مونتسكيو.. وقد أثّرت على الثورة الفرنسية جان جاك روسو: العقد الاجتماعي – الإنسان طيب بطبعه، والمجتمع يفسده.

الفلسفة النقدية: إمانويل كانط (١٧٢٤– ١٨٠٤م) من الشك إلى "العقل الحاكم": ثم جاء إيمانويل كانط، ليحاول إنقاذ الفلسفة من تيه الشك.. فقال إن المعرفة لا تأتي من التجربة وحدها ولا من العقل وحده، بل من "تفاعل" بينهما، وأن العقل يفرض على التجربة "قوالبه الفطرية".

كانط.. قرر أن يُصلح ما أفسده العقل الحديث.. قال: العقل لا يعرف الأشياء كما هي، بل كما تظهر له..

فالعالم الخارجي موجود، لكننا لا نصل إليه مباشرة – نحن سجناء في أدمغتنا، والعقل هو "نظارة الواقع" التي لا يمكن خلعها.

جميل جدًا، لكن النتيجة أن كانط بنى سجنًا من ذهب: حرّر العقل من الجهل.. ثم سجنه داخل التجربة.

فالفلسفة عنده صارت كمن يقول: الحرية ممكنة، لكن لا تخرج من الغرفة!
بعبارة أخرى: العقل لا يعكس العالم، بل يصنعه في ذهننا ! لكن هذا الاكتشاف "الخطير" أدّى إلى مفارقة أعظم: إذا كان العقل هو من يصنع العالم كما نراه، فكيف نعلم أن وراء إدراكنا شيئًا حقيقيًا أصلًا؟!
وهكذا انتهى كانط إلى جعل الإنسان معيار الحقيقة، وذلك هو قلب الحداثة: الإنسان مركز الكون، لا الإله..!
جمع بين العقلانية والتجريبية.. الثورة الكوبرنيكية: ليست المعرفة تتطابق مع العالم، بل العالم يتطابق مع هياكل عقلنا.. المعرفة تركيب من الحدس الحسي والفهم العقلي.. ميز بين: النومين (الشيء في ذاته – غير معروف) والظاهرة (الشيء كما يظهر لنا).. العقل لا يدرك الأشياء في ذاتها بل ظواهرها فقط.. الأخلاق تقوم على الإرادة الخيّرة: تصرف بحيث تكون قاعدة فعلك قانونًا عامًا.
والواجب.. فتح الطريق للفلسفة المثالية والأخلاقية الحديثة.
"**العقل يضع الحدود.. للعقل**": كانط لم يأتِ ليفكر مثل الآخرين، بل جاء ليؤسس "محكمة للعقل نفسه"! قال: العقل لا يعرف الأشياء كما هي، بل كما تظهر له.. أي أن الحقيقة موجودة، لكننا لا نراها إلا من خلف الزجاج العقلي.. وبهذا اخترع أول نظارة فلسفية في التاريخ !
ثم قال في ثقة عجيبة: يجب أن نرفض كل ما لا يمكن للعقل أن يبرره، إلا الدين الأخلاقي.. فأبقى على "الإله" فقط كضرورة أخلاقية، لا كحقيقة واقعية.. بمعنى آخر: الإله ليس موجودًا، لكنه مفيد أن نؤمن به كي لا

يسرق الناس بعضهم بعضًا، وهكذا تحوّل الإله إلى "شرطة أخلاقية داخلية"! فكانط وضع على العقل تاجًا، وعلى الإله قيدًا أخلاقيًا، ومنذ ذلك اليوم، صار الإيمان مجرد وظيفة أخلاقية لا أكثر.

كانط.. ختم الصراع بن طرفي الفلسفة بالتوليف بين العقل والتجربة، وهو بهذا يؤسس للثورات الفكرية والسياسية القادمة.

فريدريك نيتشه (١٨٤٤–١٩٠٠م) مات الإله.. فليحيا الإنسان الأعلى: ثم جاء نيتشه.. العاصفة التي هدمت معبد الفلاسفة فوق رؤوسهم.. صرخ بأشهر كلماته: "مات الإله"! لم يكن يقصد الإله في ذاته، بل الإله الذي اخترعته الفلسفة والكنيسة معًا.. كان يتحدث عن موت الفكرة التي كانت تضبط القيم والمعنى.. قال إن الإنسان ظلّ قرونًا يتكئ على الله في تفسير وجوده، فلما أزاحه عن عرشه، وجد نفسه معلّقًا في الفراغ، لا خير ولا شر، لا غاية ولا مرجع..

وهكذا، بدل أن يتحرر الإنسان، ضاع..

تحرر من الإله، فاستُعبد لغرائزه، وسقط في عبودية جديدة: عبودية الذات واللذة.. لقد أراد نيتشه أن يحرر الإنسان من كل قيد، فحرره من الأخلاق والعقل والغاية.. قال: القيم كلها أوهام عبيد، فلنصنع قيَمنا نحن الأقوياء.. وهكذا بشر بـ "الإنسان الأعلى" الذي يخلق قيمه بنفسه: كائن متجاوز للأخلاق، يرى في الرحمة ضعفًا، وفي الكبرياء فضيلة..! لكن بدل أن يعلو الإنسان، سقط في العدمية – فلم يبقَ إلا صوت يقول: كل شيء مباح.. حتى اللاشيء.

وهكذا صار نيتشه أول من بشّر بعصر "السوبرماركت القيمي"، حيث كل إنسان يختار منظومته الأخلاقية كما يختار نوع العصير.

وكانت النتيجة – الطبيعية – أن يُلهم فكره فيما بعد "النازيين" الذين وجدوا فيه "تسويغًا فلسفيًا للقوة".

وهكذا انتهى مشروع التنوير الذي بدأ بـ "أنا أفكر".. إلى.. "أنا أقتل لأنني أستطيع".

بين كانط ونيتشه: الأول وضع العقل في مكان الإله.. الثاني قتل الإله ليجلس مكانه.. فكانت النتيجة: عصرٌ فقد الإيمان، ووجد نفسه غارقًا في عبادة ذاته.. انهيار القيم وانفجار العبث..

الإنسان في مواجهة العدم.. بعد أن استنفدت أوروبا طاقتها في الجدل بين العقل والدين، دخلت في مرحلةٍ جديدة: مرحلة ما بعد الإله..!!

الفلسفة الحديثة صارت تبحث عن المعنى بعد أن فقدت الإله، لم تعد تسأل: هل الله موجود؟.. بل صارت تسأل: كيف نعيش من غيره؟

وهكذا وُلدت الفلسفات الحديثة على أنقاض الإيمان.. فجاء نيتشه صارخًا: لقد مات الإله، ونحن الذين قتلناه! لكن هذه الصرخة لم تكن إعلانًا عن حريةٍ جديدة، بل عن مأساةٍ كبرى: لقد صار الإنسان بلا معيارٍ أخلاقي، وبلا غايةٍ نهائية، وبلا معنىٍ يتجاوز اللحظة.. الفلسفة التي أرادت أن تحرر الإنسان من السماء، جعلته تائهًا في الأرض..!

وهكذا انتهى القرن التاسع عشر على وعد بالفوضى الفكرية، حيث أصبح الإنسان مركز الكون، ثم اكتشف أنه لا يستطيع تفسير نفسه حتى!

لقد أراد الفلاسفة أن يحرروا العقل من الإيمان، فأسرهم العقل في شكٍّ دائم.. وأرادوا أن يجعلوا الإنسان مركزًا للكون.. ففقد الإنسان معنى وجوده في الكون!

باختصار، هذه الحقبة حررت الإنسان من سلطة الكنيسة، لكنها سلّمته لسلطة دماغه، فاستبدل صك الغفران بـ "منهج الشك"، وظل يبحث عن الحقيقة.. في مرآة نفسه.

كانط: جعل العقل شرطي مرور على طريق المعرفة، يمنعك من الوصول إلى الحقيقة "حفاظًا على سلامتك".

هيغل: جعل التاريخ مدرسًا للفيزياء يشرح الكوارث على أنها تجارب ضرورية.

نيتشه: أول من أقام جنازة للإله ثم طالب الناس بالرقص في المقبرة.

هذه هي المرحلة التي تحوّل فيها العقل من أداة بحث إلى معمل لتصنيع الحقائق، والفيلسوف من متأمل في الوجود إلى مخرج سينمائي لفيلم كوني طويل، بطله الوحيد هو "الأنا" الباحثة عن معنى في فراغٍ سحيق.

وهكذا كان القرن السابع عشر والثامن عشر ذروة تأليه الإنسان، لكنه أيضًا بداية سقوطه..

فبعد أن أعلن ديكارت "أنا أفكر إذن أنا موجود"، يأتي نيتشه بعد قرنين ليقول: الله مات، ونحن قتلناه! ومن هذه الجملة تبدأ الفلسفة المعاصرة – انهيار السردية الكبرى.. حيث لم يعد هناك إله ولا حقيقة ولا يقين، بل إن الفلسفة ذاتها بدأت تشك في نفسها !

الفلسفة المعاصرة وما بعد الحداثة

من سارتر وهايدغر إلى ليوتار ودريدا..

التحول بعد هيغل (ردود الفعل على المثالية)

حيث تتفتت الحقيقة وتنهار القيم، ويقرر الفلاسفة أن يجعلوا كل شيء لعبة نصوص وكلمات..!

صار الفلاسفة يقولون: لا حقيقة، لا معنى، لا مركز، فقط نصوص تتكلم عن نصوص !!

الفلسفة المعاصرة وما بعد الحداثة.. (من سارتر وهايدغر إلى ليوتار ودريدا: بتنوعها وتعقيدها الشديدين.. (من القرن ١٩م حتى اليوم)

(انهيار السردية الكبرى.. حين شكّت الفلسفة في الفلسفة!)

الآن نصل إلى آخر الفصول، وأكثرها جنونًا، حيث انتهت الفلسفة إلى مرحلة يمكن تلخيصها بعبارة: "لم يعد هناك شيء يُقال بجدٍّ بعد الآن".. لقد وصلنا إلى آخر فصول الدهشة في هذا التاريخ الطويل.. الفصل الذي تنكّر فيه العقل لنفسه، وبدأت الفلسفة تتآكل من الداخل.. حين أصبح كل شيء نسبيًا، حتى اليقين..! إنها المرحلة التي يمكن وصفها بأنها: عصر الفلاسفة الذين لم يعودوا يشرحون العالم.. بل يعيدون اختراعه في رؤوسهم..! مرحلة الفلسفة الحديثة العليا، حين تحوّل العقل إلى إلهٍ مصغّر، والتاريخ إلى مسرحٍ ميتافيزيقي، والقيم إلى مشروعٍ قابل لإعادة البرمجة.

كان الفلاسفة هنا يبحثون عن نظام شامل يفسّر كل شيء: المعرفة، الوعي، التاريخ، الأخلاق، وحتى المعنى نفسه.

لكن الطموح الإلهي في "فهم الكل" جعلهم يضيعون في التفاصيل.. حيث صار الفيلسوف فنانًا تعبيريًّا أكثر منه باحثًا عن الحقيقة.. وهنا سنرى سارتر وهايدغر وليوتار ودريدا وهم يطفئون آخر مصابيح المعنى الواحد.

من الوجود إلى التفكيك.. ومن الإنسان إلى اللاشيء !

ردود فعل على فلسفة كانط، وابتعاد عن الميتافيزيقا التقليدية، وتركيز على اللغة، والوجود، والسلطة، وبنية المعرفة نفسها.

القرن التاسع عشر: الرد على المثالية والبحث عن المعنى..

المثالية الألمانية (القرن ١٩م).. فيخته: الأنا تخلق العالم بالفعل الأخلاقي.. شيلنغ: وحدة الروح والطبيعة.

جورج هيغل (١٧٧٠-١٨٣١م) "الروح المطلقة" وطقوس الغموض المقدّس: ثم جاء هيغل، العقل الألماني الذي قرر أن يكتب الفلسفة بأسلوب لا يفهمه حتى هو..! قال: الواقع هو العقل، والعقل هو الواقع.. جملة عظيمة، لكنها لا تعني شيئًا..!

ثم تحدث عن "الروح المطلقة" التي تتطور عبر التاريخ حتى تبلغ وعيها بنفسها.. بمعنى آخر: الإله يتطور مع الزمان حتى يدرك أنه الإله !

هيغل.. جعل التاريخ كائنًا عاقلًا يتحرك نحو الوعي بنفسه.. كل حرب، ثورة، فكرة، خطأ... كلها عنده خطوات ضرورية نحو الحقيقة.. أي أن المآسي ليست شرورًا، بل مراحل نموّ إلهي.. لقد أنشأ أعقد آلة فكرية في التاريخ لتبرير كل شيء: إذا انتصرت الفكرة فهي حق، وإذا انهزمت فهي حقٌّ في طور التكوين !

بعبارة أخرى: حتى الغباء عند هيغل له ضرورة فلسفية !

هيغل جعل التاريخ مقدسًا، والعقل إلهًا، والدولة تجلّيًا للإله؛ ولهذا أحبه الطغاة، لأن فلسفته تبرر كل سلطة باعتبارها "مرحلة من تطور الروح المطلقة".. حتى الحرب عنده كانت ضرورية لتقدّم الوعي! فلو كان يعيش اليوم، لقال إن الإنترنت هو "المرحلة الرابعة من الروح المطلقة" التي تدرك نفسها عبر التعليقات !

التاريخ هو عملية تطور للعقل المطلق (الروح المطلق) عبر الجدل (نقيض،

نقيض مضاد، تركيب).. (الأطروحة – النقيض – التركيب)..
والدولة تجسيد للعقل.

إذن: انتقلت الفلسفة من اللاهوت إلى الإنسان والعقل والعلم.. بدأت بالشك والتجريب، ثم بلغت ذروتها مع كانط وهيغل، مؤسِّسة للفكر الحديث والمعاصر.

المادية الجدلية والتاريخية: كارل ماركس (١٨١٨–١٨٨٣م): طور جدل هيغل بشكل مادي.. بل قل: قلب فلسفة هيغل رأسًا على عقب:
هيغل: الفكر يُنتج الواقع.. ماركس: الواقع المادي يُنتج الفكر..
البنية الفوقية: (الثقافة، الأفكار) تحددها البنية التحتية: (الاقتصاد، علاقات الإنتاج).
والتاريخ صراع طبقات يؤدي إلى الثورة.
هدف الفلسفة عنده: تغيير العالم لا تفسيره فقط (الفلسفة يجب أن تغير العالم لا أن تفسره فقط)..

الفلسفة الوضعية: أوجست كونت (١٧٩٨–١٨٥٧م): مؤسس علم الاجتماع.. المعرفة الحقيقية – عنده – تقوم على العلم التجريبي فقط.
مراحل تطور الفكر الإنساني: لاهوتي.. ميتافيزيقي.. علمي (وضعي)..

الوجودية الأولى: سورين كيركجارد (١٨١٣–١٨٥٥م).. رفض المنطق الهيغلي المجرد.. ركّز على الإنسان الفرد، القلق، الإيمان، الحرية (الاختيار)..
الإيمان قرار ذاتي لا عقلي..
مهد لوجودية القرن العشرين.

الفينومينولوجيا (الظاهراتية – الظواهرية (Phenomenology) إدموند هوسرل (١٨٥٩–١٩٣٨م): "إلى الأشياء ذاتها!" – دراسة البنى الأساسية للوعي والتجربة.. دراسة الوعي كما يُعاش لا كما يُفسَّر علميًا. العودة إلى الأشياء ذاتها (الظواهر كما تُعطى في الوعي).

أثّرت في: هايدجر، سارتر، ميرلو–بونتي.

الفلسفة الوجودية.. صرخة الإنسان الضائع: ظهر سارتر وكامو وغيرهما، ليقولوا إن الإنسان كائن بلا جوهر، وإن عليه أن "يخترع" معناه بنفسه.. فلا إله يوجّهه، ولا الطبيعة تحدده، إنما هو حرٌّ مطلق.. ومسؤول عن عبثه المطلق أيضًا.

الوجودية الحديثة: جان بول سارتر (١٩٠٥–١٩٨٠م) الإنسان يصنع ذاته بحرّيته: بدأ القرن العشرين مع جان بول سارتر بـ "الوجود يسبق الماهية (الجوهر)، والحرية قيد ثقيل".. الإنسان محروم ليخلق ذاته عبر الحرية والاختيار.. القلق ناتج عن وعي الإنسان بحريته المطلقة..

"الحرية كعقوبة".. سارتر أعلن أن الإنسان "محكوم عليه بالحرية".. أي لا توجد طبيعة بشرية محددة، ولا إله، ولا معنى جاهز.. فكل فرد عليه أن يخترع نفسه من الصفر.. كل يوم !

لكن هذه الحرية التي ظنّها خلاصًا.. تحولت إلى عبءٍ لا يُحتمل؛ لأنها بلا بوصلة، بلا إله، بلا معنى.. لا إله: إذن الإنسان مسؤول عن قيمه..! وهكذا كانت الحرية المطلقة تقود إلى العدم المطلق.

سارتر قرر أن الإنسان حر بالكامل، حتى في قيوده، وأن عليه أن يخلق

معناه الخاص؛ لأنه لا يوجد إله أو طبيعة أو مقدر يفرض عليه شيء..
أي أن الحرية المطلقة صارت عبئًا نفسيًا رهيبًا، فكل قرار يتحول إلى صرخة: أنا المسؤول عن كل شيء، حتى عن فشل الآخرين!
النتيجة؟ أجيال كاملة من البشر يعانون من القلق الوجودي؛ لأنهم مطالبون بأن يكونوا آلهة لأنفسهم.
الفلسفة الوجودية عند سارتر تشبه إعطاء طفل صغير مفاتيح سيارة فيراري.. ثم لومه إن تحطّم: "كان حُرًّا في أن يقود أو لا يقود"..!
سارتر جعل الناس يقفون أمام الفراغ، يحدقون فيه، ثم يُلقون عليه المسؤولية عن حياتهم كلها.. وهكذا بدأ عصر القلق الوجودي، وهو مجاني بالكامل ولا يشمل حتى استشارة نفسية.
سيمون دي بوفوار: تطبيق الوجودية على قضايا المرأة.
كارل ياسبرز، غابرييل مارسيل: وجودية نصرانية تركز على المعنى الروحي.

الفلسفة القارية (Continental Philosophy) في القرنين ٢٠–٢١..

السمة: تركيز على التاريخ، الثقافة، الإنسان، النقد الاجتماعي.
القرن العشرون: الفلسفات الحديثة الكبرى

التحليلية واللغة، الفلسفة التحليلية (Analytic Philosophy) في القرنين ٢٠–٢١

السمة: تركيز على المنطق، الدقة، تحليل اللغة والعلوم.
محور الفلسفة.. تحليل اللغة والمنطق بدل الميتافيزيقا.
مدرسة كامبريدج.. فلسفة العلم والمنطق الرمزي.

برتراند راسل، جورج مور، فتغنشتاين.

فلسفة اللغة: لودفيغ فيتغنشتاين (١٨٨٩-١٩٥١م): معنى الكلمة هو استخدامها في "ألعاب اللغة" داخل أشكال الحياة..!

الوضعية المنطقية.. مدرسة فيينا: القضية ذات معنى فقط إذا كان يمكن تحققها تجريبياً..!

فلسفة العقل: الثنائية.. ضد.. المادية: هل العقل منفصل عن الجسد؟

نظرية الهوية: الحالات العقلية.. حالات دماغية.

الوظائفية: الحالات العقلية تحددها وظيفتها (مثل البرنامج في الكمبيوتر).. الهرمنيوطيقا (فلسفة التأويل) (تأويل النصوص): غادامير، ريكور: فهم المعنى من خلال الحوار مع النص والتاريخ.. الفهم دائماً يحدث ضمن "أفق" تاريخي.

فتغنشتاين المتأخر: "حدود لغتي هي حدود عالمي".

البراغماتية (العملية): تشارلز بيرس، ويليام جيمس، جون ديوي.. الحقيقة.. ما ينجح عمليًا: الفلسفة أداة لحل المشكلات لا للتأمل النظري.

مارتن هايدغر (١٨٨٩-١٩٧٦م) تحليل وجود الإنسان (الدازاين) الوجود والزمان.. الوجود نسي نفسه: ثم جاء هايدغر ليقول شيئًا أكثر سوداوية: الوجود هو أن نكون نحو موتنا.. "الإنسان كائن نحو الموت.. والألم هنا مجانا"..! أي أن كل لحظة حياة مجرد اقتراب من النهاية، والوعي بهذا يجعل كل فعل بلا معنى، إلا إذا أضفنا له شعورًا بالقلق المكلف.

الوجود الإنساني منفتح على الفناء، والقلق يكشف أصالته.
أثّر على الوجوديين، والهرمنيوطيقا (تأويل النصوص).
هايدغر سأل السؤال الذي لم يسأله أحد: ما معنى أن يكون هناك وجود أصلًا؟ ثم دخل في متاهة لغوية جعلت قارئيه يظنون أنهم في دورة لتعلم لغة جديدة اسمها "الهايدغرية".
قال إن الإنسان "مرميّ في العالم"، وأننا نعيش في "قلق دائم لأننا ندرك فناءنا".. لكن هايدغر نسي أن الإنسان لا يريد أن يعيش في مقبرة فلسفية، بل في عالم له هدف.
هايدغر حوّل الفلسفة إلى تأمل طويل في كيفية انتظار الموت بوعي كامل.. وجعل الوعي بالعالم تجربة مؤلمة، حتى لو كانت مشاهدته لشجرة أو شروق الشمس، فكل شيء مجرد تذكير بأننا سنموت.. بلا استثناء..!
إذن في الوجودية، الإنسان يبحث عن ذاته في فراغٍ كوني.. ظهر سورين كيركغور ثم هايدغر ثم سارتر، وقالوا جميعًا: "الإنسان هو من يصنع معناه بنفسه".. لكن حين تسأل: "بأي معيار يصنعه؟".. يخيم الصمت !
لقد تحررت الوجودية من الإله، فوقعت في عبودية الذات، فصار الإنسان إلهاً يعبد مرآته.
ثم جاءت الفلسفات.. النفسية.. والعبثية، من نيتشه.. إلى كامو.. فقال كامو: الحياة عبث، ولكننا نعيشها رغم عبثها.
إنه تسليمٌ باللاجدوى، وتصفيقٌ للعبث باسم "الشجاعة الفكرية"!
لكن كل هذا لم يُنتج إلا إنسانًا يملك التقنية.. ويفقد الحكمة.

الفلسفة المعاصرة المتأخرة (ما بعد الحرب العالمية الثانية): المدرسة النقدية (فرانكفورت): أدورنو، هوركهايمر، ماركوزه، هابرماس.. نقد العقل الأداتي والرأسمالية الحديثة، تهدف لتحرير الإنسان من التشيؤ والاستلاب.

الفلسفة البيئية والنسوية والرقمية: تركّز على: العلاقة بالبيئة (إيكولوجيا فلسفية).. العدالة بين الجنسين.. تأثير التقنية والذكاء الاصطناعي على الوعي والهوية.

فوكو ودريدا.. الفلسفة ضد الفلسفة.. في منتصف القرن العشرين، جاء ميشيل فوكو وجاك دريدا وغيرهما، ليعلنوا سقوط "السرديات الكبرى": أي سقوط كل فكرة تزعم امتلاك الحقيقة – حتى الفلسفة نفسها..!

ما بعد البنيوية والتفكيكية: ميشيل فوكو (١٩٢٦–١٩٨٤م): ثم جاءت ما بعد الحداثة، التي قالت للإنسان: "انسَ الحقيقة، انسَ المركزية، انسَ الوحدات الكبرى.. كل شيء نصوص، وكل نص يُفسَّر بلا نهاية".. تحليل علاقة المعرفة والسلطة (المعرفة سلطة).. وكيف تشكل الخطاب المؤسسات (مصحات المجانين، السجون)..

قال فوكو: السلطة تصنع الحقيقة..

وقال دريدا: لا يوجد معنى ثابت، بل تفسيرات لا نهائية للنص.

دولوز – ليوتار: نهاية السرديات الكبرى.

جان فرانسوا ليوتار (١٩٢٤–١٩٩٨م): أعلن موت السرديات الكبرى: لا توجد قصة شاملة تشرح العالم، فقط جزيئات متنافرة من خبرات لا يمكن ربطها.. ليوتار أعلن وفاة جميع "القصص الكبرى" التي

كانت تمنح البشرية المعنى: الدين، العقل، التقدم، الحرية، الثورة... كلها انتهت..! العصر الحديث عنده أصبح "بازارًا من المعاني الصغيرة" – لا حقيقة واحدة، بل حقائق بعدد القنوات الفضائية !

جاء ليوتار ليعلن نهاية "السرديات الكبرى"، أي نهاية المعنى ذاته..! وهو أول من صاغ مصطلح "ما بعد الحداثة"، العصر الذي فيه لا يوجد معيار للحقيقة إلا الإعجاب بعدد الإعجابات !

ليوتار، الذي أعلن موت "السرديات الكبرى"، قد عاش هو نفسه داخل أكبر سردية في التاريخ: أن لا سرديات في التاريخ..!

جاك دريدا (١٩٣٠–٢٠٠٤م) التفكيك (تفكيك كل شيء حتى العدم) إظهار التناقضات الداخلية في النصوص والهياكل الفكرية – لا معنى ثابت للنص: جاء دريدا ليضيف المزيد من الجنون: "النص يفتقد المعنى الأساسي، والمعنى يتأرجح بلا أصل، وكل تفسير مفتوح بلا نهاية".. الحقيقة: لا توجد، المركز: لا يوجد، حتى الكلام عن الحقيقة: مجرد لعبة كلمات.. الفلسفة صارت رياضة أدبية للنخبة، والعامة تُترك أمام بحر من النصوص تتصارع فيه الكلمات مع بعضها بلا هدف.

دريدا لم يكن يريد أن يفهم النصوص.. بل أن يهدمها، قال إن المعنى غير مستقر، وأن كل نص يخون نفسه لأن اللغة لا تقول ما تريد بالضبط.

بعبارة أخرى: حتى الجملة التي تقول "المعنى مستحيل" يمكن تفكيكها لتُثبت عكسها..! العالم صار "ورشة إصلاح لغوي لا تنتهي"، والمعنى أصبح "مشروعًا مؤجلًا إلى الأبد".. أو قل: لعبة بلا نهاية..

دريدا هدم اللغة نفسها باسم التفكيك.. لقد فكك اللغة حتى لم يبقَ منها إلا الحروف المتناثرة، لهذا يمكن وصفه بأنه من الذين يظنون أن هدم الجسر عبقرية لأنهم لا يعرفون عبور النهر.

باختصار، بعد هذا كله: بعد أن ملّ الفلاسفة من البحث عن الحقيقة، قرروا ببساطة أن الحقيقة غير موجودة..! الفلسفة الحديثة والمعاصرة جعلت الإنسان مركز الكون أولًا، ثم فاقدًا لأي دليل على نفسه، وأخيرًا محاصرًا بكلمات لا تنتهي.. فانتهى الأمر إلى فوضى فكرية، صار فيها كل شيء "نصًا" بلا مرجع، وكل رأيٍ "وجهة نظرٍ" بلا معيار.

لم يعد الإنسان يبحث عن الحقيقة، بل عن "تجربته الخاصة" منها، وأصبح العالم الفكري أشبه بسوقٍ مفتوحٍ للآراء لا يُحاسب فيه أحد أحدًا.

وهكذا الفلسفة التي بدأت تبحث عن الحقيقة، انتهت إلى إنكار وجودها..!

سارتر: طالب الناس بأن يكونوا أحرارًا، ثم كتب مجلدات يشرح لهم كيف يفعلون ذلك !

ليوتار: جعل الحقيقة مثل موضة الصيف – تتغير كل موسم.. فلو كان يعيش اليوم، لقال في تغريدة: "لا توجد حقائق.. إلا هذه التغريدة".

دريدا: أول فيلسوف في التاريخ يكتب كتبًا هدفها أن تثبت أن الكتب لا تعني شيئًا ! لقد كتب آلاف الصفحات يشرح فيها لماذا لا يمكن فهم أي نص..

ومع ذلك كان حريصًا أن يُفهم هو !

لقد بدأت الفلسفة بعبارة طاليس: "كل شيء من الماء".. وانتهت بعبارة دريدا: "لا شيء من أي شيء".. في بدايتها، كانت الفلسفة تحاول أن تفهم الكون.. وفي نهايتها، صارت تشكك في وجوده أصلًا.

من البحث عن الحقيقة.. إلى الشك في أن هناك "بحثًا" أصلًا.

والحقيقة: إن كل نفيٍ للحقائق ينقض نفسه؛ لأن القائل بانتفاء الحقيقة يؤمن ضمنًا بحقيقة قوله..!! ومن يقول: "لا يوجد معنى"، يجعل من عبارته أول معنى مطلق في اللامعنى !

ما بعد الحداثة.. سقوط المعنى وعودة السؤال القديم.. في عصر "ما بعد الحداثة"، لم يعد السؤال: ما الحقيقة؟.. بل: هل توجد حقيقة أصلًا؟!

تاه الإنسان بين شاشاته وشهواته، وصار يبحث عن أي معنى في ضجيجٍ بلا غاية.. لقد وصلت الفلسفة إلى نهاية الطريق، وعاد العقل يسأل نفسه السؤال ذاته الذي بدأ به طاليس قبل آلاف السنين: من أين جئت؟ ولماذا أنا هنا؟ لكن هذه المرة، بعد أن جرب كل طريق، لم يجد أمامه إلا الطريق الذي تركه أول مرة: طريق الوحي.

إن المفاجأة الكبرى في تاريخ الفلسفة ليست في أفكارها، بل في رحلتها الدائرية، رحلة الجنون البشري في البحث عن بديل للوحي: من المعبد إلى المادة، ومن المادة إلى الإنسان، ومن الإنسان إلى الفراغ، ثم من الفراغ إلى البحث عن الله من جديد، لقد أثبتت الفلسفة بنفسها أنها لا تستطيع أن تفسر الوجود إلا إذا اعترفت بخالقه.. فالعقل بلا وحي كالعين بلا ضوء؛ تبصر نفسها ولا تبصر الطريق.

النقد الإسلامي للفلسفة

الإيمان في مواجهة "المعبدَ الفلسفيَّ"

كيف واجه الفكر الإسلاميُ المعبدَ الفلسفيَّ، وهدمه بحجرٍ واحدٍ اسمه "الوحي"

موقف الفكر الإسلامي من الفلسفة عبر العصور.. (من ابن سينا إلى الغزالي وابن تيمية.. إلى مشروع الإسلام الحضاري)

ابن سينا.. الفيلسوف الذي أراد أن يوفّق بين السماء والعقل: ابن سينا لم يكن مجرد ناقل عن اليونان، بل مهندس عقلٍ إسلاميّ يحاول استيعاب الكون داخل نظام توحيدي.. قال كما قال أرسطو: "العقل هو أداة الفهم"، لكن أضاف إليه بذكاء: "والعقل مخلوق، فلا يُدرك إلا بحدوده".. أي أنه استخدم المنطق الأرسطي لبناء رؤية ميتافيزيقية، لكن سقفها الأعلى كان الله، لا "الفكرة المطلقة" الهيغلية ولا "العدم النيتشوي".

ومع ذلك، أخطأ حين جعل العقل كافيًا للوصول إلى بعض الغيبيات، فجاء الغزالي ليقول له بابتسامة لا تخلو من حدّة: عقلك قويٌّ يا ابن سينا، لكنه لا يملك تصريح الدخول إلى ما وراء الطبيعة.

الغزالي.. المفكّر الذي فجّر المعبد الفلسفي من الداخل: الغزالي لم يأتِ ليحارب الفلسفة، بل ليُخضعها للتحقيق الشرعي والعقلي معًا.

في "تهافت الفلاسفة"، لم يهاجم كل فكرهم، بل فقط النقاط التي تجاوزوا فيها حدود العقل والوحي معًا.. كان منطقه بسيطًا: إن كان العقل طريقًا إلى الحقيقة، فليدلّنا على بداية نفسه أولًا !

الغزالي كان أول من اكتشف التناقض الذي لم يرَه الفلاسفة الغربيون إلا بعد قرون: أنّ العقل إذا أطلق نفسه بلا مرجع، انتهى إلى الشك في

نفسه.

ولذا قال كلامًا يصلح شعارًا لكل نقد فلسفي حديث: من طلب الحق بالعقل وحده ضلّ، ومن ترك العقل بالكلية غوى.

وبهذا يضع الغزالي ميزانًا مذهلًا: عقلٌ يُستخدم، لا يُؤلَّه.

الفلسفة الإسلامية كما نقدها ابن تيمية: الفلاسفة (كابن سينا والفارابي) افترضوا أن بين الله والعالم سلسلة من العقول المفارقة، وأن الفيض الإلهي هو الذي يخلق الكائنات، لا بإرادة أو قصد، بل كضرورة وجودية.

أي أن الله عندهم علة لا فاعل – كالشمس التي لا تقصد الإشراق بل تُشرق لأنها لا تملك إلا أن تُشرق.

ابن تيمية يرى أن هذا المنهج كله مبني على خلطٍ بين الخالق والمخلوق.. فالضرورة والعلية ليست صفات كمال، بل عجز.

الإله الحق يخلق بإرادة واختيار، لا كمن تُساق منه الفيضانات قسرًا!

ثم بيّن أن الفلاسفة يتحدثون عن "عقل أول" و"نفس كلية"، لكنهم لا يدرون ما هي إلا ألفاظًا فارغة لا تملك دلالة حسية ولا عقلية، وكلما سُئلوا عن ماهيتها، أجابوا بعبارات من قبيل: "هي جوهر لا في مكان ولا زمان".

فرد عليهم ابن تيمية ساخرًا: لو وُصف المعدوم ما وُصف بأبعد من هذا.

الفلاسفة يشبهون من يتحدث عن نارٍ تحرق دون حرارة، أو شمعة تضيء دون لهب.. يتكلمون عن "عقل أول" لا يعرف ما يفعل، وعن "فيضٍ" بلا قصد، ثم يقولون إن الله هو الكمال المطلق !

لو كان الفيض عن ضرورة، لكان وجود الفلاسفة أيضًا ضرورةً مؤلمةً للعقل.

إذن: الفكر الإسلامي لم يرفض الفلسفة لمجرد اسمها، بل رفض "انفصالها عن الحقيقة الإلهية".. وهو وحده – بين جميع الحضارات – الذي قدّم نموذجًا معرفيًّا متوازنًا: يقبل العقل.. يرفض الإلحاد.. يفتح باب البحث.. ويغلق باب العبث.

فبينما انتهت الفلسفة الغربية إلى العدمية، كان الفكر الإسلامي يقول منذ البداية: ليس الوجود لغزًا بلا معنى، بل رسالة ذات غاية.

الفكر الإسلامي لم يُطفئ شمعة الفلسفة، بل وضعها في مصباحٍ لا يحرق صاحبه.

وكل الفلسفات الحديثة التي وصلت إلى الحيرة والعدمية، كانت تسير في الطريق ذاته الذي حذّر منه علماء الإسلام قبل تسعمائة عام.

جذر الخلل في تعريف "الفلسفة"

الفيلسوف يبدأ عادة من مقدمات وجودية أو نفسية أو ثقافية يظنها بديهية، ثم يبني عليها منظومته الفكرية، لكن هذه المقدمات نفسها ليست عقلية خالصة، بل متأثرة بـ: بيئته الحضارية، تجربته الوجودية، ميوله النفسية، منظومته الأخلاقية والدينية.

أي أن ما ينتجه الفيلسوف يعتمد على نشاط ذهني وتحليل منطقي، لكن لا يلتزم بالضرورة بالضوابط الموضوعية التي تُنقي الفكر من تأثيرات الهوى أو البيئة أو الميول.

بمعنى: هو رأي يُولد من التفكير العقلي لكنه لا ينضبط بالعقل البرهاني.

ولهذا تجد مثلًا: الفلسفة اليونانية متشبعة بالأسطورة.

والفلسفة الألمانية (كانط، هيغل) متأثرة باللاهوت البروتستانتي.

والفلسفة الوجودية نابعة من أزمة الذات بعد الحروب الأوروبية.

فهي ليست ناتجة عن العقل الكوني المشترك، بل عن العقل الثقافي النسبي.

إذن: الفلسفة – في حقيقتها – ليست رأيًا عقليًا بالمعنى الدقيق، بل رأيٌ ثقافي مبرّر بالعقل..

أي أنها تستخدم العقل كوسيلة تبرير، لا كمصدر موضوعي للمعرفة؛ ولهذا يختلف الفلاسفة كما تختلف الأمم، بينما يتفق "العلماء" لأن موضوعهم واحد ومناهجهم مضبوطة بالعقل البرهاني.

طبيعة "العقل" عند علماء الإسلام

عند علماء الإسلام العقل ليس أداة إنتاج أفكار، بل أداة كشف وتهدي إلى الصواب.. فهو مرآة للحقائق لا مولّدٌ لها..

قالوا: "العقل الصحيح لا يعارض النقل الصريح"، أي أن مهمة العقل هي الفهم والتمييز، لا الإنشاء والاختراع..

فالعقل عندهم وظيفة إدراكية لا إبداعية، بينما عند الفلاسفة وظيفة إبداعية يصنع بها الإنسان "تصوراته الخاصة للعالم".

"العقل الهادي" مقابل "العقل التبريري": العقل الهادي مثل بوصلة في يد المسافر، بينما العقل التبريري مثل مصباح في يد من ضلّ طريقه لكنه لا يعلم أين يسير.

كيف تجلّى هذا الفهم عند العلماء: الغزالي في المنقذ من الضلال فرّق بين العقل الذي "يكشف" والعقل الذي "يخترع".

ابن تيمية قال: "العقل الصريح لا يناقض النقل الصحيح، وإنما يتناقضان إذا فسد أحدهما".

أي أن فساد العقل يكون حين يتحوّل من أداة فهم إلى أداة تحكم.

الجويني والآمدي وغيرهم جعلوا العقل وسيلة لإدراك الوجوب والاستحالة والإمكان، لا وسيلة لوضع تصورات جديدة عن الله والكون..

وكل عقلٍ يستقلّ عن الوحي يتحول من "عقلٍ هادٍ" إلى "رأيٍ مبرّرٍ"، وكل رأيٍ مبرّرٍ يُؤدي إلى فلسفة، وكل فلسفةٍ تُفضي إلى الخلاف والاضطراب، لا إلى العلم واليقين.

كيف جعل المنهج الإسلامي من الجمع بين الوحي والعقل تفوقًا حقيقيًا على الفلسفات القديمة والحديثة.

الفلسفات القديمة والحديثة كلها أخطأت في موضع العقل.. الفلاسفة منذ اليونان إلى اليوم اختلفوا لا في القضايا فقط، بل في موقع العقل من المعرفة: اليونانيون (أفلاطون وأرسطو) جعلوا العقل مصدرًا للحقائق الكلية المطلقة.. فوقعوا في التجريد الميتافيزيقي المنفصل عن الواقع.

المحدثون (ديكارت، سبينوزا، هيغل) جعلوا العقل "إلهًا صغيرًا"، يحكم على الوجود والشرع والأخلاق بقوانينه الخاصة.. فوقعوا في الغرور العقلي الذي انتهى إلى الإلحاد والعَدَمية.

التجريبيون (بيكون، هيوم، كونت) رَدّوا العقل إلى الحسّ فقط.. فوقعوا في القصور المادي وعجزوا عن تفسير المعنى والغاية والروح.

إذن: القديم جعل العقل خالقًا للحقائق، والحديث جعله حاكمًا عليها، وكلاهما أخرجه عن حدّه الطبيعي: أن يكون مُدركًا هاديًا.

المنهج الإسلامي أعاد العقل إلى موضعه الصحيح..

الإسلام قدّم توازنًا لم يعرفه أيّ منهج آخر: فالوحي والعقل في علاقة تكامل لا تصادم، وتراتب لا تضاد: الوحي يمدّ العقل بالحقائق الغيبية والمقاصد النهائية..

يضمن الهداية واليقين..

العقل يفهم، يبرهن، يميّز بين الحق والباطل ضمن ما يدركه..

يضمن الاتساق والفهم الصحيح؛ فالعقل خادم للوحي لا سيد عليه،

والوحي مرشد للعقل لا معطّل له؛ ولهذا قال العلماء: العقل شرط في معرفة الشرع، والشرع غاية كمال العقل..

أي: العقل هو الطريق إلى الإيمان، والوحي هو النور الذي يُكمّل مسيرة العقل ويمنعه من التيه.

بفضل هذا الميزان.. أنتج الإسلام علومًا عقلية يقينية متراكمة لم تعرفها الفلسفات: علم أصول الفقه: قمة في المنهج العقلي المنضبط.

علم الكلام (مع التحفظ): جدل عقلي يضبط المفاهيم العقدية بالحجة والبرهان.

المنطق الإسلامي (عند الفارابي والغزالي): صاغ العقل ضمن حدود الشرع لا خارجه.

العلوم الطبيعية (ابن الهيثم والبيروني): ربطت بين التجريب والحكمة الإلهية، فأنشأت علمًا لا فلسفةً متقلبة.

وهكذا: بينما أنتجت الفلسفةُ "الآراء"، أنتج الإسلامُ "العلوم".

إذن: الفلسفة: عقل بلا وحي.. تفرّق واختلاف

الوحي بلا عقل.. تقليد وجمود

الإسلام: وحي مع عقل.. هداية ويقين

ومن هنا يظهر تفوق المنهج الإسلامي: لأنه لم يعبد العقل، ولم يُلغِه، بل جعله وسيلة هداية، لا وسيلة حيرة.

كيف أثّر التوازن بين الوحي والعقل في بناء التصور الإسلامي للكون والإنسان والحقيقة؟ وما الذي ميّزه عن التصورات الفلسفية القديمة والحديثة؟

أولًا: مركز الحقيقة في التصور الإسلامي.. في الفلسفات القديمة والحديثة، كان البحث عن الحقيقة انطلاقًا من الإنسان: أفلاطون جعل الحقيقة فكرة عقلية.. أرسطو جعلها في جوهر المادة.. ديكارت جعلها في "الأنا المفكّرة".. هيغل جعلها في "الروح المطلقة".

أما في الإسلام فالحقيقة تنطلق من الله لا من الإنسان.. قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ**﴾ الحج ٦٢

فالإسلام لا يبدأ من الإنسان إلى الله، بل من الله إلى الإنسان.

ومن هنا تنعكس كل المعارف والمعاني على ضوء "الحق الإلهي"، لا على ضوء "الرأي الإنساني".

ثانيًا: تصوّر الكون.. الكون في الفكر الإسلامي مخلوق منضبط بالقانون الإلهي، يُدرك بالعقل ويُفسَّر بالسنن التي أودعها الله فيه.

فالعقل يُفسّر الظاهر، والوحي يُفسّر الغاية.

أما الفلسفة فتنحرف في أحد اتجاهين: إما تؤلّه الكون (كما عند الرواقية والهيغلية).. أو تفصله عن الغاية والمعنى (كما عند المادية الحديثة).

لكن الإسلام جمع بين العلم بالسنن والإيمان بالغاية، فقدّم نظامًا علميًا غائيًا لا يعرفه أي مذهب فلسفي.

ثالثًا: تصوّر الإنسان.. الإنسان في الإسلام عقلٌ وروحٌ وجسد، لا يُختزل في أيٍّ منها، بل يتكامل فيها جميعًا.

بينما: الفلسفة القديمة جعلته عقلاً مجردًا.. والفلسفة الحديثة جعلته رغبةً وحسًّا.. والوجودية جعلته عبثًا وحريةً بلا غاية.

أما الإسلام فجعل كرامته في الجمع بين: "حرية العقل"، و"عبودية القلب"، و"مسؤولية الجسد".

وهذا ما أوجزه القرآن في آية جامعة: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ أي: مكرَّم بالعقل، مكلَّف بالشرع، مستخلف في الكون بالعلم.

رابعًا: تصوّر الحقيقة والمعرفة.. الفلسفة تتأرجح بين: النسبية (كل رأي يحتمل الصواب والخطأ).. والدوغمائية (اليقين الذاتي المغلق).

أما الإسلام فأسّس ما يمكن تسميته بـ اليقين المنفتح: اليقين في الأصول، والانفتاح في الفروع.. فالحقيقة المطلقة هي لله، لكن الإنسان يمكنه أن يقترب منها بالعقل المهدى بالوحي، لا بالعقل المنعزل ولا بالإيمان الأعمى

إذن: التصور الإسلامي جمع بين العقل والروح، بين القانون والغاية، بين الحرية والمسؤولية.. فكان "تصورًا معرفيًا متكاملًا" لا يوجد له مثيل في تاريخ الفكر الإنساني؛ ولهذا يمكن أن نعبّر عن المبدأ الإسلامي كله في جملة واحدة: الوحي هداية، والعقل وسيلة، والحق مقصد.

ما الفرق بين العقل والرأي

سؤال يمسّ واحدة من أدقّ القضايا في منهج التفكير الإنساني.

وسوف أقسّم الإجابة إلى مراحل تحليلية بسيطة:

تعريف العقل: العقل هو الملكة التي تميز بين المعاني، وتدرك العلاقات والعلل والنتائج.

فالعقل يعمل على مستوى البرهان والضرورة المنطقية والقوانين الكلية.

بعبارة أخرى: العقل هو أداة الإدراك المنهجي الذي يحكم صحة الأفكار من عدمها.

مثال: عندما يقول الإنسان: "النار تحرق"، فهذا حكم عقلي سببه التلازم الضروري بين النار والاحتراق.

تعريف الرأي: الرأي هو نتيجة فكرية صادرة عن العقل لكنها لا تبلغ مرتبة اليقين العقلي، لأنها تعتمد على الظن أو الترجيح أو التجربة الشخصية أو المصلحة.

مثال: عندما يقول شخص: "الحرية أهم من العدالة"، فهذا رأي، لأن لا دليلًا عقليًا قاطعًا يوجب ترجيحه على العكس.

الحد الفاصل بينهما: الحد الفاصل هو: أن العقل يُنتج أحكامًا ضرورية عامة، بينما الرأي يُنتج أحكامًا احتمالية أو شخصية.

بمعنى آخر: ما كان يُدرَك بالضرورة أو بالبرهان العقلي القطعي.. فهو من عمل العقل.. وما كان يُدرَك بالظن أو المصلحة أو التجربة أو الذوق.. فهو من مجال الرأي.

الفارق الجوهري بين العقل كأداة يقينية والفلسفة كتجربة فكرية متغيرة

الفلاسفة يزعمون أن الفلسفة هي "استخدام العقل المجرد في البحث عن الحقيقة"، لكن في الواقع، ما يجري داخل الفلسفة ليس استعمالًا للعقل بالمعنى البرهاني القطعي، بل هو استعمالٌ للرأي العقلي المجرّد من القيود التجريبية واليقينيات؛ ولهذا.. نرى أن: كل فيلسوف يُنشئ "عقلًا خاصًا به" – أي طريقةً في النظر – بينما العقل في ذاته واحد في نتائجه إذا انضبط بقوانين البرهان.

دليل التغيّر والتعدد: ما دام الفلاسفة يختلفون في أصول الوجود، وفي ماهية النفس، وفي معيار الخير، فهذا يعني أن ما ينتجونه ليس علمًا بالمعنى الدقيق، بل آراء عقلية تختلف باختلاف مقدماتهم ومقاصدهم.

ولو كانت الفلسفة عقلية بالمعنى العلمي: لما خالف أرسطو أستاذه أفلاطون، ولا كانت مدارس الفكر اللاحقة تنقض السابقة، كما لا يخالف فيزيائي اليوم في قانون نيوتن إلا لتصحيح دقيق مبني على برهان تجريبي.

الفرق بين "العقل الفلسفي" و"العقل العلمي": العقل العلمي: يشتغل على الضرورة والبرهان التجريبي (قوانين قابلة للقياس والتكرار).

العقل الفلسفي: يشتغل على المفاهيم الكلية المجردة التي لا تُبرهَن تجريبيًا ولا تُقاس، فيدخل الرأي في صميمها.

إذن، الفلسفة من حيث نتيجتها تندرج تحت الرأي العقلي لا تحت العقل البرهاني؛ لأنها لا تُنتج يقينًا مشتركًا، بل "رؤى فكرية" تتغير بتغير زاوية

النظر.

إذن: لو كانت الفلسفة من العقل، لكانت علمًا.. ولما كانت متغايرة غير تراكمية، فهي من الرأي.

وهذا استدلال متماسك: العلم يقتضي التراكم على أساس مشترك.

الفلسفة لا تراكم على أساس مشترك بل تُنشئ أساسًا جديدًا كل مرة.

إذن الفلسفة ليست علمًا، بل رأيًا.

إلزام الفلاسفة بضرورة الوحي

هل يستطيع العقل البشري وحده أن يؤسس معرفة يقينية بكل الحقائق التي تتوقف عليها سعادة الإنسان الأخلاقية والوجودية، من غير أن يتلقى خبرًا من مصدر يتجاوز قدرته المعرفية؟

الفرق بين معرفة الحقيقة واختراعها: العقل يستطيع أن يستدل على أشياء كثيرة: أن التناقض لا يمكن أن يكون صحيحًا من الجهة نفسها وفي الوقت نفسه.. أن الظلم ليس هو العدل.. أن بعض الأفعال تترتب عليها نتائج ضارة.. أن الكون يكشف عن انتظام يمكن دراسته وفهم بعض قوانينه.

لكن هل يستطيع العقل، بمجرد النظر في هذه الحقائق، أن يستخرج منها وحدها إجابات يقينية عن جميع الأسئلة الآتية:

لماذا وُجد الإنسان؟ هل له غاية تتجاوز الحياة الدنيا؟ هل يموت الإنسان وتنتهي قصته نهائيًّا؟ هل سيحاسَب على أفعاله بعد الموت؟ ما حقيقة ما يريده الله من الإنسان، إن ثبت وجود إله مريد؟ ما العبادات التي شرعها الله، وما شروطها، وما الذي يترتب عليها؟

إذن: قدرة العقل على فحص الدليل لا تعني قدرته على إنتاج المعلومات التي لا يتضمنها ذلك الدليل.. فالعقل يستطيع تحليل ما لديه من معطيات، لكنه لا يستطيع أن يستنبط من المعطيات الطبيعية وحدها تفاصيل واقعة لم يشهدها، أو إرادة لم يُكشف عنها، أو خبرًا عن المستقبل لا دليل لديه عليه.

فإذا كانت هناك حقائق لا سبيل إلى معرفتها إلا بإخبار صادق من الله، فإن الوحي يصبح طريقًا معرفيًّا لا يغني عنه الاستدلال العقلي وحده.

هل يستطيع العقل تأسيس الأخلاق وحده؟ هذه نقطة أشد أهمية في مناظرة الفلاسفة.. لنفترض أن فيلسوفًا قال: أنا أستطيع معرفة الخير والشر بعقلي، فلا أحتاج إلى الوحي.

نسأله: هل تقصد أنك تستطيع معرفة بعض وجوه الخير والشر، أم أنك تستطيع تأسيس منظومة أخلاقية كاملة وملزمة لكل إنسان، مع إثبات الغاية النهائية التي تجعل الالتزام بها واجبًا؟ ثمة فرق بين الأمرين.

يمكن للعقل أن يدرك، بدرجات متفاوتة، قبح الظلم وحسن العدل، وأن يكتشف عواقب الأفعال، وأن يقارن بين المنافع والمضار.

لكن الأسئلة الأصعب هي: هل كل ما يحقق المنفعة خير أخلاقي؟ هل يجوز ظلم إنسان بريء إذا حقق ذلك منفعة أكبر لمجموع الناس؟ ما الذي يجعل الواجب الأخلاقي ملزمًا حتى حين تتعارض مصلحتي معه؟ هل توجد أفعال محرمة لذاتها، أم أن الحكم عليها يتغير كليًّا بتغير الظروف؟ هل للإنسان غاية أخلاقية نهائية تتجاوز ما يختاره لنفسه؟

لا توجد إجابة فلسفية واحدة متفق عليها لهذه المسائل.. وحتى لو أثبتنا أن العقل يستطيع إدراك المبادئ الأخلاقية الأساسية، فلا يلزم من ذلك أن يستطيع معرفة جميع ما يأمر به الله أو ينهى عنه.. وهذا هو الموضع الذي يمكن أن تظهر فيه الحاجة إلى الوحي، لا بوصفه بديلًا عن العقل، بل بوصفه مصدرًا لمعلومات لا يستقل العقل باكتشافها.

هل نستطيع إلزام الفيلسوف الملحد أيضًا؟ إذا لم يثبت الفيلسوف استحالة وجود إله قادر على إبلاغ الإنسان خبرًا، فلا يحق له أن يرفض الوحي لمجرد أنه يتجاوز الوسائل المعتادة للمعرفة.

نسأل الفيلسوف: هل تنكر الوحي لأنه مستحيل عقلًا، أم لأنك لا ترى دليلًا على وقوعه؟ هناك فرق جوهري بين القولين.

الاستحالة: أن يتضمن الوحي تناقضًا عقليًّا، كاجتماع النقيضين من الجهة نفسها وفي الوقت نفسه.

عدم ثبوت الوقوع: أن يكون الوحي ممكنًا، لكننا لم نثبت بعد أن الله أوحى إلى أحد.

فإن قال إن الوحي مستحيل، طالبناه بإثبات الاستحالة.

وإن قال إنه لم يثبت، فقد انتقلنا من دعوى الاستحالة إلى دعوى عدم كفاية الدليل، وهذه لا تُحسم إلا بفحص الأدلة.

هل يستحيل أن يخاطب الخالق مخلوقه؟ هل يلزم من العقل أن يكون الخالق عاجزًا عن إفهام بعض مخلوقاته خبرًا يريده؟ لا.. فإذا لم يكن إبلاغ الخبر مستحيلًا في ذاته، ولم يثبت ما يمنعه من جهة صفات الخالق، فلا يصح الحكم باستحالته لمجرد أن البشر لا يتلقون عادةً أخبارهم بهذه الطريقة.. فإذا أراد الله من الإنسان معرفة أمر معين.. وكان الإنسان عاجزًا عن معرفة ذلك الأمر استقلالًا؛ فلا بد من طريق آخر لإيصاله إليه، إذا كان الله يريد منه معرفته فعلًا.. قد يكون هذا الطريق وحيًا، أو إبلاغًا بواسطة رسول، أو طريقًا آخر يختاره الله.

كيف نمنع الفيلسوف من الهروب بين المراحل؟ هنا تكمن القوة العملية للمناظرة.. لا نسمح للخصم بأن يرفض الوحي باعتباره مستحيلًا، ثم حين نطالبه بإثبات الاستحالة يكتفي بالقول إنه غير مثبت.

ولا نسمح له بأن يجعل العقل مصدر المعرفة الوحيد، ثم يعامل القضايا التي لا يستطيع حسمها كما لو أنه أثبت عدم وجود حقيقة وراءها.

نلزمه في كل مرحلة بتحديد دعواه ودليلها: هل الوحي مستحيل؟ أثبت الاستحالة..

هل العقل يستقل بمعرفة كل ما يحتاج إليه الإنسان؟ حدّد ما تقصده بالاكتفاء، وقدّم دليلك..

هل الحكمة الإلهية لا تستلزم البيان؟ ناقش مقدمات التكليف والغاية وإمكان المعرفة..

هل النبوة لم تقع؟ ميّز بين غياب الدليل عندك وبين وجود دليل على عدم وقوعها.

الفلسفة تشهد على نفسها

العقل الذي دار ٢٥ قرنًا.. حول نفسه !

حوار "تخيلي" مع الفلاسفة

المشهد الذي تُطفأ فيه أضواء مسرح العبث، ويُسدل الستار على ٢٥ قرنًا من الجدل الفلسفي، حيث يقف الفلاسفة واحدًا تلو الآخر في صفٍ طويلٍ من الوجوه المندهشة، وأمامهم "المسلم"، بيده قلمٌ وريشة، لا ليمحوهم.. بل ليشرح لهم أنفسهم ! ولأننا نسير تاريخيًا، سنبدأ من طاليس، أول من ظن أن الكون "طفل مائي كبير"

شيخٍ يوناني بلحية مبتلّة يحمل دلوا من الماء ويصيح: وجدت الأصل! إنه الماء !

يردّ عليه صديقه أنكسمندر وهو يرفع بصره إلى الغيوم: بل الأصل هو اللامحدود !

وينادي أنكسمانس: بل الهواء !

فيصرخ فيثاغور: الأعداد هي جوهر الكون !

فيشغل هيرقليطس نارا وهو يقول: بل هذه أصل جميع الأشياء !

تدخل شخصية عربية بعمامة شامخة – المسلم – فيحدّق فيهم ثم يقول ساخرًا: عجيب أمركم! تبحثون عن أصل العالم في الأشياء، وتغفلون عن الذي أوجد الأشياء..!

طاليس: كل شيء من الماء، فهو أصل الوجود، ومصدر الحياة، ومنه خرجت الآلهة والناس.

وليد: يعني حين ترفع كوبًا من الماء، أنت في الحقيقة ترفع أصل الكون؟ هل تقول "بسم الماء" قبل أن تشربه؟

طاليس: بل أقول إن الماء هو المبدأ الأول، منه كل شيء، وإليه يعود.
وليد: إذن حين تجف البحيرات، هل الكون يختفي؟ وحين تغلي الكائنات في قدر الحساء، هل نطبخ الفلسفة أم نعيدها إلى أصلها؟
طاليس (مرتبكًا): الماء يتحول إلى بخار، ثم يعود مطرًا، فهذه دورة الكون!
وليد: آه، فهمت! الكون إذًا "قدر كبير على النار"، والآلهة طباخون مهرة! حقًا يا طاليس، لم تكن بحاجة إلى التفكير، كان يكفي أن تفتح صنبور الماء لتجد الحقيقة!
يدخل أفلاطون بثقة، يرافقه أرسطو، وهو يقول (بصوتٍ هادئ):لقد بحثنا عن الحق عبر المثل، ووجدنا أن الجمال والعدل والخير صور أزلية.
وليد (بابتسامة ساخرة): صورٌ بلا مصوّر؟! إذن ضاعت المثل في الفراغ يا أفلاطون، كما ضاع خيالك في كهفك.
أرسطو (متدخّلًا بحزم): لكن يا وليد، الطبيعة لا تحتاج إلى مثالٍ خارجها، فكل شيء يتحرك لغايةٍ فيه.
وليد: إذن من الذي وضع الغاية؟ إن السهم لا يطير لذاته، بل لأن يدًا أطلقته.
ولو عقلتم هذا ما احتجتم إلى ألف كتابٍ لتفسّروا حركة ذبابة.
يظهر أفلاطون وهو جالس على سحابة، يرسم دائرة ويقول: ها هنا موطن الحقيقة، في عالم المثل!
يناديه أرسطو من الأرض: لكننا لا نعيش في الدوائر يا معلم، بل في التراب!

فيتدخل وليد قائلًا: المثل التي لا تُشبع جائعًا ليست حقيقة، بل خيالٌ متقن الصنع.. كلوحة زيتية عن الخبز لا تُشبع أحدًا.

الفارابي يدور حول سلمٍ من النور، وابن سينا يكتب فوقه: العقل الأول، الثاني، الثالث... حتى الملل !

ينظر إليهما وليد ويقول بنبرة حكيمٍ ملّ من الثرثرة: ما شأنكم بالعقول العشرة؟ أما كفاكم عقلٌ واحدٌ يميّز بين الخالق والمخلوق؟!

ثم يضيف مبتسمًا: أنتم كمن رسم خريطةً للسماء ونسِيَ الأرض التي يقف عليها.

ديكارت جالس أمام مرآةٍ كبيرة يقول لنفسه: أنا أفكر، إذن أنا موجود.

وليد (بضحكة خفيفة): وأنا أقول: أنت موجود، إذن أنت تفكر.

لكن من الذي أوجدك لتفكر..؟ لقد بدأت من نفسك، فدرت حولها حتى تهت فيها.

ديكارت: أنا أشك في كل شيء.. إذن أنا موجود

فيقترب منه وليد هامسًا: بل أنت موجود قبل أن تشكّ، لأن الشك لا يخلق الوجود.. بل يكشف ضياعه.

ثم يدخل سبينوزا مرتديًا رداءً أخضر مكتوبًا عليه "الطبيعة.. هي.. الله"، فيصرخ وليد ساخرًا: وإذا كان الله هو الطبيعة، فلماذا تحتاج إلى مظلة عندما تمطر؟

نيتشه يقتحم المكان صارخًا: لقد مات الله!

فيرد عليه وليد بهدوءٍ كصوت الحقيقة وسط الجنون: بل مات فهمك

للإله، أما الإله فحيٌّ لا يموت.

نيتشه: لقد قتلنا الإله يا وليد، وصنعنا الإنسان الأعلى!

وليد (بهدوءٍ قاتل): أنتم قتلتم أوهامكم لا إلهكم، فالإله الحق لا يموت لأنكم صرّحتم بذلك في كتبكم؛ بل لأنكم عجزتم عن إدراكه في قلوبكم.

سارتر بوجهٍ متجهم: الإنسان حرٌّ تمامًا، يصنع نفسه بنفسه بلا قَدَرٍ ولا غاية

وليد: حرٌّ؟! بل تائهٌ في حرّيته.

الحرية التي بلا حق كالسفينة التي كسرت دفتها وتظن البحر وطنًا.

ثم يبتسم ساخرًا: أنتم تريدون إنسانًا يصنع نفسه، ولو صنع نفسه لما كان إنسانًا بل إلهًا صغيرًا ضائعًا في الفراغ.

يدخل فوكو ودريدا وليوتار وهم يتجادلون بلغاتٍ متقاطعةٍ لا يفهمها أحد.. وكلٌّ منهم يحمل مطرقة يهدم بها فكر الآخر.

يضحك وليد قائلًا: ما بعد الحداثة؟ بل ما بعد العقول !

ثم يكتب على الجدار: "حين ينهدم المعنى، تفرح الألفاظ لأنها بلا عمل".

دريدا يصرخ: المعنى يتفكك دائمًا، لا وجود لثبات.

وليد: هل تعني ما تقول؟ أم أن قولك نفسه قابل للتفكيك؟!! يا صاحبي، أنت حفرت قبر فكرتك بمعولها.

يدخل ديفيد هيوم متثاقلًا، يحمل بيده كتابًا مكتوبًا عليه "التجربة هي كل شيء".. وهو يقول بثقة: لا أؤمن إلا بما أراه وأحسه.

فيرد عليه وليد مبتسمًا: فهل رأيت عقلك يا هيوم؟

يتلعثم هيوم ويجيب: لا.. لكني أشعر به!

فيرد وليد ضاحكًا: إذن قد آمنتَ بما لا يُرى ولا يُحسّ.. لقد بدأتَ بالفطرة، وانتهيتَ بما أنكرتَ!

يدخل هيغل متمايلًا كمن خرج لتوّه من مختبر الأفكار، يقول بصوتٍ جهوريٍّ غامض: الجدل هو مسار الوجود، والتاريخ وعيٌ بالذات!

فيرد عليه وليد ساخرًا: أيها الرجل، لو كان التاريخ يعي نفسه، لما احتاج إلى من يكتبه.

ثم يضيف بحدةٍ هادئة: إنكم يا أصحاب الجدل تحبّون أن تصفوا الله كما تصفون الحركة الدائرية: لا تعرفون أين البداية ولا النهاية، ثم تقولون هذا هو المطلق! المطلق ليس حلزونًا فكريًا يا هيغل، بل خالقٌ يعلم ما يفعل.

يدخل كارل ماركس ممسكًا بمطرقةٍ صغيرة ويصيح: الفكر انعكاس للمادة! والدين أفيون الشعوب!

فيرد عليه وليد ببرود العالم الذي سمع هذا كثيرًا: سبحان الله، جعلتَ الفكر ابنًا للمعدة، ثم أردتَ أن تقود العالم بالكتب لا بالطناجر!

ثم يضيف: أما الدين الذي سميته أفيونًا، فهو وحده الذي جعل الفقير يرى في عمله معنى، بينما فلسفتك جعلت الإنسان آلةً بلا ضمير.

يقف جان بول سارتر شاردًا وهو يتمتم: الوجود يسبق الماهية، الإنسان يصنع نفسه.

فيرد وليد مبتسمًا: جميل أن تصنع نفسك، فهل صنعتَ أنفاسك أيضًا؟

ثم يقترب منه بخفةٍ ويقول: لقد جعلتَ الحرية صنمًا تعبده، حتى صرتَ

عبدًا لحريةٍ لا تعرف ماذا تفعل بها.

يدخل فرويد حاملًا أريكةً ويقول: "العقل الباطن هو السيد الحقيقي، والدين عقدةٌ نفسية من الأب".

فيرد عليه وليد ساخرًا: عجيبٌ أمرك! قضيت عمرك تبحث عن اللاوعي، ثم كتبتَ عن الوعي بوعيٍ كامل..!

أما عقدة الأب.. فلو كنتَ تعرف الأب حقًا، لعرفتَ ربّ الأب.

فرويد (متحمسًا): كل ما تراه يا وليد إنما هو انعكاس لرغبات دفينة مكبوتة!

فيرد وليد بنظرةٍ حادةٍ فيها حنان المعلم: بل الرغبات انعكاس لقلوبٍ فقدت الإيمان، وأنت جعلت النفس مختبرًا ولم تجعلها مرآةً للوحي.

يقف برتراند راسل مبتسمًا بثقة المنطقي الذي يحسب نفسه بلا ثغرات، ويقول: المنطق وحده كافٍ لهداية العقل.

فيرد وليد بسرعة البرق: إذن لماذا أخطأ المنطق نفسه حين جعلك تظن أن الخير يُعرَف من التجربة لا من الوحي؟

المنطق بلا وحي كقطار بلا سكة؛ يسير بسرعة.. نحو الهاوية.

تُفتح الأبواب، ويدخل نيتشه ودريدا وماركس وهيوم وسارتر وهيغل معًا، كلٌّ يصرخ بلغته الخاصة، فيشير وليد إلى السماء ويقول بهدوءٍ مخيف: كلّكم تتحدثون عن العقل.. ولم يسأل أحدكم: من خلقه؟ إنكم كمن يحاكم قانون الجاذبية لأنه لا يحبّ الارتفاع!

ثم يكتب: الفلسفة بلا وحي.. حوارٌ طويل بين مجانين ناطقين.

يدخل مارتن هايدغر متلفعًا بمعطفٍ أسود، يتكلم عن "الكينونة" بصوتٍ يشبه التأمل في الفراغ: الإنسان ألقي في الوجود إلقاءً، وهو قلقٌ لأن الوجود لا معنى له.

فيرد عليه وليد وهو يتفحصه بنظرة العالم الذي يفهم مرض الفكر كما يفهم الطبيب الحمى: إذا كان الإنسان أُلقي، فابحث عمّن ألقى.

ثم يضيف بابتسامة لاذعة: قلقك دليل فطرتك يا هايدغر، لكنك بدل أن تعود إلى خالقك، جلست تكتب عنه مذكرات وجودية!

يدخل كارل بوبر حاملاً أنبوب اختبار، يقول بثقة: العلم لا يعرف اليقين، بل يعرف فقط ما يمكن دحضه.

فيرد عليه وليد: فهل يمكن دحض هذه القاعدة نفسها..؟!

يصمت بوبر قليلًا..

فيتابع وليد بابتسامة: إذا كانت قاعدة الدحض لا تُدحض، فقد آمنتَ بيقينٍ دون أن تشعر، وإن كانت تُدحض، فسقطت من أول تجربة..!

يقتحم توماس كون القاعة متحمسًا: التاريخ العلمي ليس تقدمًا عقلانيًا، بل سلسلة من ثورات ونماذج متغيرة!

فيرد وليد: ما أجمل أن تعترف بأن عقول العلماء تختلف وتتبدل.. لكن أخبرني: من الذي لا يتبدل؟

يصمت كون، فيكمل وليد بنبرة هادئة ساخرة: إنك تصف حيرة البشر، لا قوانين الكون.. فالوحي هو الثابت وسط فوضاكم المعرفية، وإلا لاحتجنا إلى ثورةٍ علميةٍ كلّما استيقظ فيلسوف من نومه !

يدخل ستيفن هوكينغ على كرسيه، يحمل كتابه "التصميم العظيم" وهو يقول: القوانين الكونية تفسر وجود الكون دون حاجة إلى خالق.

فيرد وليد بابتسامةٍ فيها من التحدي أكثر من الجدال: والقوانين التي تفسر الوجود، من فسّر وجودها..؟!

القانون لا يعمل إلا إن كان هناك مشرّع.

ثم يضيف ساخرًا: أنتم يا أهل الفيزياء مثل من يفسّر كتابةً جميلةً بالحديث عن الحبر، وينسون الكاتب الذي أمسك القلم !

يظهر ريتشارد دوكنز على المنصة، يصرخ بثقة المسرحيين لا العلماء: الإيمان خرافة، والعلم يفسر كل شيء!

فيرد وليد وهو يضحك ضحكة فيها حزن المتأمل: وهل العلم فسّر لماذا تؤمن بالعلم؟ أم أن خرافةً جديدةً وُلدت على يدك اسمها: الإلحاد العلمي؟

ثم يقف وليد ويقول بتهكم لاذع: لقد عبد الوثنيون الشمس لأنها تضيء، وعبدتَ أنت المختبر لأنه يلمع.

يقف الجميع – هايدغر، بوبر، كون، هوكينغ، دوكنز – في صفٍ واحد أمام وليد.

يسود صمت ثقيل كصمت المجرة قبل الانفجار.

ينظر إليهم وليد ويقول: كلّكم تحدث عن الوجود دون أن يعرف من أوجده.. جعلتم العدم خالقًا، والقانون إلهًا، والتجربة وحيًا.. أما أنا، فأقول: العلم جميل حين يكون خادمًا للوحي، قبيحٌ حين يتوهم أنه خالقه.

ثم يختم بنبرة ساخرة حكيمة: يا معشر الفلاسفة وأهل المادة، لقد ملأتم

الأرض كتبًا، لكنكم نسيتم أن صفحةً من وحيٍ صادقٍ تغني عن مجلدٍ من ظنٍّ عابر.

يظهر من بعيد (فيلسوفٍ معاصرٍ ما بعد حداثي يؤمن أن الحقيقة "نصٌّ متغير" وأن القيم "نِسْبِيَّةٌ لا مطلق فيها") جاء متأخرا، ويحاول اللحاق بالحوار قبل أن ينتهي، فيدخل مهرولا وهو يلهث..

الفيلسوف: نحن في عصرٍ تجاوز الحقيقة المطلقة يا وليد، لم يعد في العالم يقين، كل شيء نسبي، وكل نصٍّ مفتوح على تأويلٍ لا نهاية له.

وليد (مبتسمًا): وهل قولك هذا – أنه لا حقيقة مطلقة – حقيقةٌ مطلقة..؟!

الفيلسوف (يتلعثم): أقصد... إنها رؤية نسبية أيضًا.

وليد: إذن لا بأس أن أرفضها، لأن رفضي لها نسبي مثلك.. لكن دعني أسألك: إذا كان كل شيءٍ نسبيًّا، فكيف تُدين الحرب والظلم والكذب؟ ألستَ بذلك تضع معيارًا أخلاقيًّا ثابتًا؟

الفيلسوف: ربما لأن البشر اتفقوا على أن هذه أشياء سيئة.

وليد: إذن أنت تعبد "رأي الأكثرية"، واليوم إذا اتفقت الأكثرية على قتل الضعفاء، فهل يصير ذلك خيرًا؟

الفيلسوف: لا.. لكننا نؤمن بالإنسان، بكرامته، وبالعقل.

وليد: ها قد عدتَ إلى المطلق الذي أنكرتَه: كرامة الإنسان! من منحها له..؟ الطبيعة العمياء؟ أم الصدفة؟ أم السوق؟

الفيلسوف (صامت): ...

وليد: لو كانت الكرامة من الصدفة، لما وجب احترامها.. ولو كانت من الطبيعة، لكانت القوة معيارها لا الرحمة.. أما إذا كانت من الخالق، فهنا فقط يصبح احترام الإنسان واجبًا.. فمن غير الله لا معنى للإنسان.

الفيلسوف: لكننا على الأقل حررنا الإنسان من سلطة الدين!

وليد: بل أخرجتموه من عبادة الله إلى عبادة النفس.. قالها نيتشه: "كن إله نفسك".. لكن أخبرني: كم إلهًا صارت الأرض تحوي؟ سبعة مليارات؟

الفيلسوف: نحن أحرار نختار قيمنا بأنفسنا.

وليد: وهل يختار الطائر قوانين الطيران؟ إن الحرية بلا قانونٍ سقوط، لا تحليق.. والقانون بلا وحيٍ عبودية، لا نظام.. إن الإسلام لم يقيد الحرية، بل أعطاها غاية: أن تتحرر من كل عبدٍ إلى عبادة الله وحده.

الفيلسوف: وماذا عن المعنى؟ نحن نصنعه بأنفسنا، ليس هناك "غاية كونية"، بل إرادة بشرية.

وليد: ولكنك حين تموت، أين تذهب إرادتك؟ أليست كل معانيك تنتهي معك؟ فأيّ عبثٍ أعظم من معنىٍ يموت بالموت؟

أما نحن فنؤمن بمعنىٍ يبدأ من الخلق ولا ينتهي إلا بالخلود.. نحن لا نصنع المعنى.. نحن نُستدعى إليه.

تعليق وليد في الختام: ما أعجبكم يا فلاسفة الحداثة.. كلما فشل أحدكم في العثور على الحقيقة، ادّعى أنه لم يكن يبحث عنها أصلاً!

الفيلسوف (متعبًا): لقد تعبنا يا وليد من كثرة المناهج والشكوك.. كل فلسفة تنقض أختها، وكل حقيقة تنقلب وهماً.. فأين الطريق؟

وليد (بابتسامة هادئة): الطريق لم يتغير، لكنه غُطّي بغبار الفلاسفة.. هو الطريق نفسه.. الذي أشار إليه كل عقلٍ صادقٍ حين تعب من التفكير: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

ولم يقل: "اهدنا إلى المذهب الصحيح" أو "النظرية النهائية"، بل إلى الصراط، لأن الهداية ليست فكرة.. بل سلوك.. الفلاسفة بحثوا عن الحقيقة بالعقل وحده، أما الأنبياء فجاؤوا بالعقل الموحَى إليه.

والعجب أن الفلاسفة – بعد آلاف الصفحات – يصلون إلى ما بدأ به الأنبياء في جملةٍ واحدة: "لا إله إلا الله"

يصمت الجميع، وتبقى كلمة واحدة تتردد في الفضاء: "الوحي".

الكلمة التي هربوا منها في البداية، ثم داروا حولها ألفي سنة، ليكتشفوا في النهاية أنها كانت أصل العقل وميزانه.

تنطفئ الأضواء، ثم يظهر في الظلام نورٌ خافت حول كلمة "الوحي"..

يستدير الجميع نحوه كمن يسمع اسمه لأول مرة.. فيبتسم وليد ويقول للناس: ها هو المفتاح الذي ضيّعوه، واليقين الذي أنفقوا قرونًا في البحث عنه بين الشكوك.. ثم يرفع رأسه إلى السماء ويتمتم: اللهم إنهم تعبوا من الدوران حول العقل، فاهدهم إلى من خلقه.

ينظر الفلاسفة إلى بعضهم بعضًا، ثم ينسحبون بصمتٍ كأنهم رأوا حقيقتهم للمرة الأولى.

خاتمة: حين عادت الفلسفة لتدور حول الإسلام دون أن تدري

إنه الختام الذي يُغلق الستار على المسرح الفلسفي استمرّ ٢٥ قرنًا، بدأه طاليس بقطرة ماء، وأنهاه دريدا بقطرة حبر لا تثبت معناها.

لقد سجل التاريخ.. سقوط المعبد الفلسفي.. (من البحث عن الحقيقة إلى صناعة الضباب)

أولًا: ولادة الفلسفة.. حين خرج طاليس من معبد الآلهة، أراد أن يفسّر الكون دون كهنة.. كانت الفلسفةُ تمرّدًا على الأسطورة، لكنها – في مفارقة لاذعة – ما لبثت أن أصبحت أسطورةً جديدة؛ إلهها "العقل"، وطقوسها "المنطق"، وأنبياؤها "الفلاسفة".

لقد استبدل الإنسان المعبدَ السماويَّ بمعبدٍ ذهنيّ، يُقدَّم فيه البراهين بدل القرابين.

ثانيًا: المأساة العقلانية.. من سقراط إلى ديكارت إلى هيغل، كان المشروع الفلسفي يسعى لبناء نظام شامل يفسّر الوجود.. لكن كلّما اقتربوا من الحقيقة، اكتشفوا أن "العقل" لا يفسّر سوى نفسه.. فكان العقل كمن يبني سُلَّمًا ليصعد إلى السماء، ثم يدرك في النهاية أنه صعد على ظهره هو وهكذا انقلبت الفلسفة من بحث عن المعنى إلى بحث عن سبب غياب المعنى.

ثالثًا: الانفجار الحديث.. مع نيتشه وسارتر وليوتار ودريدا، انفجرت الفلسفة من الداخل كنجمةٍ شاخت.

مات الإله، ضاع الإنسان، تفكّكت الحقيقة، وتحوّلت اللغة إلى متاهة.

لم يبقَ من الفيلسوف إلا ظلٌّ يمشي بين الكلمات، يبحث عن معنى لفقدان المعنى..

الفيلسوف الذي بدأ برفض الأسطورة، انتهى بصناعة أسطورة جديدة اسمها "العدمية الراقية".. كان يريد أن يحرّر الإنسان من الوهم، فجعله يعيش في وهم أنه حرٌّ من كل وهم.. أراد أن يبني صرحًا للمعرفة، فبنى متاهةً للمعاني لا مخرج منها إلا بالجنون أو الشعر.

رابعًا: أين يقف الإنسان الآن؟ يقف على أطلال معبد العقل، ينظر إلى السماء فلا يرى إلهًا، وينظر إلى الأرض فلا يرى نفسه، ثم يقول بملامح سارترية متعبة: "أنا أفكّر.. إذن أنا تائه".

إن الفلسفة، منذ طاليس حتى دريدا، لم تفشل لأنها بحثت عن الحقيقة، بل لأنها ظنّت أن الحقيقة يمكن أن تُستخرج من الإنسان وحده.. فالعقل الذي لا يتجاوز نفسه يظلّ يدور في فلك ذاته، كقمرٍ بلا شمس..

وهكذا انتهت رحلة الفلسفة: بدأت بسؤال: ممَّ خُلق العالم؟

وانتهت بسؤال: هل هناك عالم أصلًا؟

من طاليس إلى دريدا.. من الماء إلى العدم.. ومن الحكمة إلى الضجيج.

ومن هنا، عاد الإنسان الحديث إلى نقطة البداية، لكن بعد أن جرّب كل الأبواب ووجدها مغلقة.

الفلسفة الحديثة تشبه مائدةً امتلأت بكل شيء، ثم اكتشف أصحابها أنهم نسوا الطبق الرئيسي: المعنى.

لكن.. في القرن العشرين، بدأ بعض فلاسفة الغرب يكتشفون أن الحضارة

المادية وحدها لا تُشبع الإنسان.. فكتب توينبي وشْبِنْغلر وغارودي وهنتنغتون عن "أزمة المعنى"، واكتشفوا أن الحضارة الإسلامية، رغم انكسارها السياسي، ما زالت تحمل "نظامًا معرفيًّا متوازنًا" بين العقل والوحي، والروح والمادة، والأخلاق والتقدم.. لقد أدرك بعضهم أن في الإسلام تصحيح لمسار الفلسفة، وأن الوحي هو "العقل الأعلى" الذي تاه عنه الفلاسفة.

الفلسفة، بعد رحلةٍ طويلة من الأسطورة إلى التجريب، ومن المادة إلى الروح، ومن الشك إلى العدم، انتهت إلى البحث عن ما بدأت به الأديان أصلًا: المعنى، الغاية، والحق المطلق.. لكن المفارقة أن هذا المعنى لا يزال محفوظًا في آخر مكانٍ ظنوه ملاذًا للجهل: في الوحي الإلهي.

فلسفة ما بعد الحداثة، حين أعلنت إفلاسها وعادت لتسأل الإسلام.. من نقد العالم إلى نقد المعنى.

في منتصف القرن العشرين، وبعد حربين عالميتين خلّفتا عشرات الملايين من القتلى، استيقظت الفلسفة على صرخةٍ مدوّية: لقد كان العقل الذي ظنناه مخلّصنا.. هو صانع الدمار!

من هيغل إلى ماركس إلى نيتشه، كانت الفلسفة تعد الإنسان بالجنة الأرضية، فإذا بها تُنتج جحيمًا علميًّا وتقنيًّا.. وهنا ظهرت "ما بعد الحداثة"، لا لتبني نظرية جديدة، بل لتحطم فكرة "النظرية" ذاتها.

قال دريدا: لا حقيقة هناك، بل نصوص تتناسل بلا نهاية.

وقال فوكو: الحقيقة مجرد أداة سلطة، والمعرفة وجه آخر للقوة.

أما ليوتار فقال في إعلانٍ صادم: لقد انتهت السرديات الكبرى.. فلا مخلّص ولا حقيقة..

وهكذا تحولت الفلسفة من البحث عن الحقيقة، إلى الشك في وجودها أصلاً.

موت الحقيقة: موت الفلسفة.. حين أنكرت ما بعد الحداثة وجود المعنى، فقدت الفلسفة آخر مبررات وجودها.. صارت تُمارس التفكيك من أجل التفكيك، والسؤال من أجل السؤال، حتى أصبحت لعبة لغوية فارغة من الجوهر.. وهنا بدأ كثير من المفكرين الغربيين يشعرون بالفراغ ذاته الذي بدأ منه الإنسان الأول.

فأعلن روجيه غارودي بعد رحلةٍ طويلة من الماركسية إلى الإسلام أنه بحث عن الحقيقة في العقل، وفي الحزب، وفي الثورة، حتى وجد أن الحقيقة ليست فكرةً بل إيمان، وليست فلسفةً بل وحي.

الفلسفة تسأل الإسلام.. اليوم، حين تواجه الفلسفة قضايا الوعي والذكاء الاصطناعي والهوية والمعنى، تجد نفسها أمام الأسئلة القديمة ذاتها: من نحن؟ لماذا خُلقنا؟ ما الغاية؟ لكنها تكتشف أن العقل وحده لا يستطيع أن يُجيب عنها دون أن يصنع أوهامًا جديدة.

لقد سقطت الأسطورة القديمة، وسقطت الفلسفة الحديثة، ولم يبقَ إلا الدعوة التي قال عنها الوحي: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾

وهكذا، من طاليس إلى دريدا، دارت الفلسفة دورةً كاملة حول نفسها،

لتعود في النهاية إلى النقطة التي بدأت منها: بحثُ الإنسان عن الواحد الحق.. إن الفلسفة لم تمت، لكنها انهارت على عتبة الوحي، لتكتشف أن العقل لا يجد طمأنينته إلا في "كلمة الله" التي خُلِق بها.

لقد انتهت رحلة الفلاسفة إلى الباب الذي طرقه الأنبياء منذ الأزل، لكنهم هذه المرة يطرقونه بوجلٍ وتواضع، يسألون لا ليجادلوا.. بل ليُؤمنوا.

أنهكت الفلسفة نفسها في البحث عن مرجعيةٍ خارجيةٍ للعقل، لكنها تعود اليوم لتقرّر بلسان فلاسفتها أنفسهم أن الإنسان لا يعيش بالعقل وحده.

الإسلام لا يطلب من الناس أن يُلغوا عقولهم، بل أن يُنقّوها من الهوى..

فالقرآن أول كتابٍ في التاريخ خاطب العقل في كل صفحةٍ تقريبًا: ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾.. ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ**﴾.. ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾.. الفلسفة في كل عصرٍ كانت تبحث عن: أصل الوجود، غاية الحياة، معيار الخير والشر.. وقد فشلت لأنها حاولت أن تُجيب دون الرجوع إلى الخالق.. أما الإسلام، فقد جمع هذه الأسئلة في جملةٍ واحدةٍ حاسمة: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾

فكانت العبادة هي الفلسفة الحقيقية للوجود، والمعنى الأعلى للحكمة، والجواب الذي انتظره الإنسان منذ طاليس حتى اليوم.

وهكذا، تنتهي مفاجآت الفلسفة إلى اعترافها الصامت: أن أعظم يقينٍ هو ما أنزله الله، وأن الحقيقة لا تكون إلا في نور الوحي.

المراجع

- الأوذيسة: هوميروس – مكتبة دار الكتب الأهلية.
- اعترافات جان جاك روسو: روسو – المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع.
- أفلاطون: ر. فالتزر – دار الكتاب اللبناني.
- تاريخ الفلسفة الغربية: برتراند راسل – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- تهافت الفلاسفة: الغزالي – دار المعارف.
- دائرة معارف القرن العشرين: مُحَمَّد فريد وجدي – دار المعرفة.
- دروس في الفلسفة: يوسف كرم، إبراهيم مدكور – عالم الأدب للترجمة والنشر.
- الرد على المنطقيين: ابن تيمية – دار المعرفة.
- علم الأخلاق: سبينوزا – دار الجنوب للنشر.
- قصة الحضارة: ول ديورنت – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
- قصة الفلسفة: ول ديورانت – دار المعارف.
- محاكمة سقراط: أفلاطون – دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.
- المعرفة والسلطة: ميشيل فوكو – المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع.
- المنقذ من الضلال: الغزالي – دار المعارف.
- هكذا تكلم زرادشت: نيتشه – منشورات الجمل.

- الموسوعة العربية العالمية: مجموعة من العلماء والباحثين – مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع.
- الموسوعة العربية الميسرة: علي مولا – المكتبة العصيرية.
- الوجودية مذهب إنساني: سارتر – مطبعة الدار المصرية للطبع والنشر والتوزيع.

الفهرس

مقدمة	٤
في البدء كان الدين (الفلسفة الشرقية القديمة)	٥
فلاسفة البدايات (الفلسفة اليونانية القديمة)	١٢
الفلسفة الكلاسيكية	٢١
الفلسفة الهلنستية	٢٨
الفلسفة الرومانية	٣٢
الفلسفة الوسيطة (النصرانية والإسلامية واليهودية)	٣٤
الفلسفة الحديثة	٤٦
الفلسفة المعاصرة وما بعد الحداثة	٥٩
النقد الإسلامي للفلسفة	٧١
الفلسفة تشهد على نفسها.. العقل الذي دار ٢٥ قرنًا حول نفسه !	٨٨
خاتمة.. حين عادت الفلسفة لتدور حول الإسلام دون أن تدري	١٠٠
المراجع	١٠٥
فهرس الموضوعات	١٠٧

جميع الحقوق محفوظة



لقد دار العقل البشري آلاف السنين في متاهة الفلسفة، من طاليس إلى اليوم، ليكتشف في النهاية أن "أول سؤالٍ في التاريخ" هو أيضًا "آخر سؤال": من أنا؟ ولماذا وُجدت؟

والجواب لم يكتبه فيلسوف، بل نزل من السماء منذ البدء: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾

الروح: جبريل عليه السلام